الأستاذ أحمد بن الطاهر المنصوري
خريـــج الجامـــع العـــدواني

عقد الجمان
في جمع
وتدوين القرآن

- دراسات قرآنية -

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع القانوني 4111 – 2009 المكتبة الوطنية

ردمك 2 – 2717 – 0 – 9947 – 978

تم الطبع بشركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع - عين مليلة

الهاتف: 00. 92. 44. 0.32

قال تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَى وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

[الحجر الآية: 9]

الإهداء

إلى كل مسلم غيور على الدين الإسلامي الحنيف،

خاصة للّذي يهتم بحفظ القرآن والمحافظة عليه.

أهدي هذا الجهد المتواضع

أحمد بن الطاهر منصوري

أعوذ بالله من الشّيطان الرجيم

اللّهم صلّ على سيدنا محمّد صلاة تخرجنا بها من ظلمات الجهل وتكرمنا بها بنور الفهم وتوضح بها ما أشكل علينا حتّى يفهم إنّك تعلم ولا نعلم وأنت علاّم الغيوب. وبعد، فإنّه لمّا ناولني الفقيه الأديب والباحث الأريب الفاضل الأجلّ والقدوة الأكمل سيدي أحمد بن الطّاهر منصوري أحد منابر العلم بوادي سوف المحروس نسخة من عمله العلمي الموسوم بـــ (عقد الجمان في جمع وتدوين القرآن) لأكتب له مقدّمة ألفيت لنفسي مكبرة لصاحبه عاجزة عن الوفاء بأدنى مطالبه معزيّا نفسي يقول الشاعر:

قليل منك يكفيني ولكن *** قليلك لا يقال له قليل

فقد سبق للمؤلّف المذكور أن كتب (الدّر المرصوف في تاريخ سوف) و(المختصر في فقه ومتن اللّغة العربيّة) و(دراسات قرآنية) إلخ...

وأهداني نسخا منها جزاه. اللّه خير الدّارين ووفّقه لأهدي النّجدين.

وها أنذا ألبّي طلبه كتابة مقدّمة لآخر إصداراته في مجال أنا فيه أفقر الورد وآخر من شمّر وجرى، إذ أنّ ميدانه أفسح الميادين ومتعلّقة الذّكر المترل على سيّد المرسلين فقد خوطب بشأنه نبيّنا الكريم يقول الحكيم العليم: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ وبقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾. فمن اللّه الكبير المتعال أستمد العون في تحرير هذا المقال فأقول وباللّه

التوفيق وهو الهادي إلى أقدم طريق إنّ القرآن الكريم هو كلام اللّه تعالى، ومعلومٌ أنّ الكلام صفة وأنّ الصّفة قائمة بالموصوف لا تنفك عنه ولهذا جاء معجزًا تحدّى اللّه به فصحاء العرب وبلغائهم فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثله ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأتُواْ بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾، فأنّى للعاجز أن يحيط بالكلم الكامل فضلا عن أن يتحدّاه؟

روى أبو نعيم في (الحلية) أنّ رسول اللّه ﷺ قال: لا يفقه الرّجل حتّى يرى للقرآن وجوها كثيرة، وروى أبو يعلى في مسنده عن عبد اللّه بن مسعود قال: قال رسول اللّه ﷺ ما نزلت آية من القرآن إلاّ ولها ظاهر وباطن ولكلّ حرف حدٌّ ولكلّ حدّ مطلعٌ ولهذا اعتنى علماء الملّة الإسلامية به فكتبوا في لغته ونحوه وأحكامه وتفسيره وقصصه ومواعظه وزواجره وجزالة لفظه وبديع نظمه.

قال عنه الإمام النّسفي في (العقائد) إنّه احتوى لإشارات خفيّة، ودقائق تنكشف لأرباب السّلوك ويمكن التّطبيق بينها وبين الظّواهر المرادة وهذا من كمال الإيمان ومحض العرفان، وقد فسّر الصحابيّ الجليل أبو الدّرداء رضي اللّه عنه الحكمة في قوله تعالى ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرا﴾ بأنّها قراءة القرآن وتدبّره. وقد وجدت الأديب الألمعيّ والباحث الأصمعيّ سيدي أحمد بن الطاهر منصوري من المعنيين بقول النبيّ عليه الصّلاة والسلام: إنّ للّه أهلون وخاصّة قيل من هم يا رسول اللّه؟ قال أهل القرآن وخاصّته، فقد شغل حيزا من عمره المبارك في العناية بما بين دفّتي الكتاب فكتب في بحثه هذا في الفصل الأوّل عن جمع القرآن وتدوينه وفي الثّاني عن نزول القرآن وفي الثّالث عن منهجه وفي الرّابع عن سوره المبتدأة بحرف وفي الخامس عن أفضليّة الحمد ومغزاه وفي السّادس عن لغة القرآن وأسماء السّور والسّجدات والأجزاء والأحزاب. وقد جاء كتابه بتوفيق اللّه متكاملاً يفيد

المبتدئ ولا يستغني عنه المنتهي، فهنيئًا له (العقد بعد الدرّ) والمختصر وزاده اللّه تمكينًا من بحار القرآن وآدابه ومتّعه بشيبته بعد أن متّعه بشبابه وبارك له في محبّيه وطلاّبه وجعلنا اللّه وإيّاه يوم القيامة على سُرُر متقابلين بعد الورود على حوض سيّد المرسلين ﷺ ومجّد وعظّم، ووفّقنا وإيّاه لنكون لكتاب اللّه معظّمين وبه عاملين وسلامٌ على المرسلين والحمد للّه ربّ العالمين.

الدّكتور محمّد بن بريكة

(اليوزيدي الحسني)

خبير دولي في الدّراسات الصّوفية

رئيس المجلس العلمي لأصول الدّين سابقا

أستاذ الدّراسات العليا بجامعة الجزائر

شهر اللّه المحرّم 1427.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لقد شغّفت منذ صغري بالقرآن العظيم، وتذوقت أسلوبه الرائع الحكيم في شتى مواضيعه ودعوته وتوجيهاته وتقريراته، واطلعت على جملة من كتب التفسير وغيرها من الكتب العربية قديمها وحديثها مما يتصل بموضوع القرآن ومبادئه وأهدافه والجدل حوله، واستظهرت كثيرا من روائعه الجهادية والأخلاقية والإجتماعية والروحية وكانت لي منهاجا في ظروف حياتي التعليمية والجهادية ومن ثم نشأت عندي: فكرة كيف تم جمع القرآن وتدوينه.

ولما سمحت الفرصة وتيسرت الأسباب سارعت إلى البحث والتنقيب في الكتب القرآنية وقرأت ما تيسر لي من كتب التفسير خاصة والكتب التي تعرضت للبحث في القرآن وأسرار معانيه ومقاصده وأسباب نزوله والحفاظ عليه وإعجازه.

فالقرآن الكريم من معجزة المعجزات جاء إلى الأرض ليهدي أهلها، وليكون لهم مرشدًا ونذيرًا، فبهر العرب وبهتوا وخشعوا لله طويلا بعد أن سمعوا ما تضمنه من آيات كريمات محكمات، ومعجزات خالدات، فكان الواحة الآمنة التي يستظل بها البشر من الحر، وكان النسمة المنعشة العليلة في جبين الإنسان والإنسانية.

إن القرآن الكريم سر السماء في الأرض، وقد اندفع المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، يدرسونه ويحفظونه، متعبدين، خاشعين، إيمانا بقوله تعالى: [في سورة الحجر الآية: 9] ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَى وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

ولما تكفّل الله تعالى بحفظه خص به عباده وأورثه لمن شاء من عباده الصالحين، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَذِينَ اَصْطَفَيْنَا﴾، [فاطر: 32]

وكان الاتكال في هذا على حفظ المؤمنين، فكانوا يحفظون القرآن الكريم في قلوبهم وصدورهم، ولقد اعتنى العلماء والفقهاء بنص القرآن الكريم السماوي، وانصرف العلماء التقات له، ووقفوا أعمارهم وأنفسهم في سبيل إتقانه وتلقوه من النّبي العظيم ﷺ حرفا بعد حرف، لم ينسوا منه حركة ولا إثباتا ولا حذفا ولا سكونا، ولقد تلقاه الصحابة فكان ﷺ يستمع إليهم وهم يقرأون عليه.

قال الرسول ﷺ: "أن يقرأ القرآن رطبا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم معبد".

وهذه صورة من صور توثيق النص القرآني ومن الأحاديث النبوية الشريفة، قال ﷺ "لا تكتبوا عنّي شيئا سوى القرآن، فمن كتب عنّي شيئا سوى القرآن فليمحه".

هكذا نجد أن الرسول العظيم بالغ في شدة الحفاظ على النص القرآني. ولذلك كان القرآن هو النص العربي المتواتر المجمع على تلاوته بالطرق التي وصل الينا بها في الأداء والحركات والسكنات فلم تعرف البشرية كتابا أحيط بالعناية والإكبار مثل القرآن، فحوفظ على حرفه وكلماته وحركاته، وكيفية ترتيله مع اتقان النطق والتلقين.

جمع القرآن بالكتابة وحفظت الألسن والآثار وأكدت السور وأثبتت الحقوق وسيقت التواريخ، وأمن الإنسان النّسيان وقيدت الشهادات وأنزل اللّه في ذلك آية الدين وهي أطول آية في القرآن.

وبعد:

يسرني ويشرفني أن أقدم لك أيها القارئ الكريم، كتابي هذا "عِقْد الجُمَان في جمع وتدوين القرآن".

راجيا من اللّه العلي القدير أن تنتفع به

واللّه ولي التوفيق.

أحمد بن الطاهر منصوري.

الفصل الأول

أ – جمع القرآن وتدوينه:

1 – معاني جمع القرآن:

معاني جمعه عن الإطلاق وما يراد به عنه لغويا وتاريخيا من خلال الآيات والأحاديث ومنها: جمعه بمعنى حفظه فيقال: جمّاع القرآن أي حفّاظه.

– جمع القرآن كتابته كله بكل الآيات والسور لقوله تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ (أي كتبه). [عبس: 15 - 16]

– جمعه للقراءة قال تعالى: ﴿إِنَّا عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ﴾ [القيامة: 17].

– نسخه في مصحف واحد على قراءة واحدة.

– توفي رسول اللّه ﷺ والقرآن في الصدور وفيما كتب عليه من العسب والرخاف والأكتاف والأقتاب والكرانيف والرقاع [1] لحديث زيد ابن ثابت (رضي اللّه عنه) وقوله: "كنا نجمع القرآن من الرّقاع".

ب – الاتقان في علوم القرآن للسّيوطي.

1 – تفصيل وتوضيح أدوات التدوين:

– العسب: جريد النخل بعد تجريده من الخوص ويكتب على الطرف العريض منه.

– الرخاف: وهي صفائح الحجارة الرقاق.

– الأكتاف: العظم الجاف من الكتف.

– الأقتاب: جمع قتب، خشب الرجل للبعير.

---

(1) – الاتقان في علوم القرآن للسّيوطي.

- الكرانيف: أصول سعق النخيل.

- الرقاع: من جلد أورق أو غيرهما.

روى الطبري: "أن عبد اللّه بن مسعود قال لأصحابه: حفظت من لسان رسول اللّه ﷺ 70 سورة" [تفسير الطبري ص: 28].

حديث زيد بن ثابت قال: قبض النّبي ﷺ و لم يكن القرآن قد جمع في شيئ.

وقال الخطابي إنما لم يجمع ﷺ القرآن في الصحف، لما كان يترقبه من ورود ناسخ ومنسوخ لبعض أحكامه أو تلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاته، الهم اللّه الخلفاء الراشدين يذلك وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة، فكان ابتداء ذلك على يد أبي بكر الصّديق بمشورة عمر رضي اللّه عنهما.

وقال الحاكم في المستدرك: جمع القرآن ثلاث مرات:

1 – احداهما بحضرة النّبي ﷺ عن زيد بن ثابت قال: كنا عند رسول اللّه نؤلف القرآن من الرقاع. والمراد بتأليف ما نزل من الآيات المفرقة في سورها، جمعها فيها بإشارة النّبي عليه الصلاة والسلام.

2 – والثانية بحضرة أبي بكر – رضي اللّه عنه –.

3 – الثالثة: هو جمع وترتيب السور في زمن سيدنا عثمان – رضي اللّه عنه –.

2 – أسباب ودوافع جمع القرآن في صحف:

لقد وقعت في أيام أبي بكر حروب أهل الرّدة ومنها غزوة أهل اليمامة، وكان أكثر المحاربين من حفظة القرآن، فقتل في هذه الغزوة سبعون قارئا منهم، وكان مثل هذا العدد قد قتل في عهد النّبي ﷺ فهال ذلك عمر بن الخطاب – رضي اللّه عنه – فدخل على أبي بكر فقال: إن أصحاب رسول اللّه ﷺ باليمامة يتهافتون تهافت الفراش على النار، وإني لأخشى ألا يشهدوا موطنا إلاّ فعلوا ذلك حتى يقتلوا، وهم حملة القرآن، فيضيع القرآن وينسى، ولو جمعته وكتبته.

فنفر منها أبو بكر، وقال: أفعل ما لم يفعل رسول اللّه ﷺ !؟

فتراجعا في ذلك، ثم أرسل أبو بكر إلى زيد بن ثابت، قال زيد: فدخلت عليه وعمر عنده فقال لي أبو بكر: إن هذا قد دعاني إلى أمر فأبيت عليه، وأنت كاتب الوحي، فإن تكن معه اتبعتكما، وإن توافقني لا أفعل، فذكر أبو بكر قول عمر وعمر ساكت، فنفرت من ذلك وقلت: يفعل ما لم يفعل رسول اللّه ﷺ ...؟ إلى أن قال عمر رضي اللّه عنه كلمة: وما عليكما لو فعلتما ذلك؟ فذهبنا ننظر، فقلنا: لا شيء واللّه، ما علينا في ذلك شيء. قال زيد: فأمرني أبو بكر فكتبته، وتتبعت القرآن أجمعه من العسب والرخاف والرقاع وصدور الرجال، ووجدت آخر سورة التوبة عند أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه اللّه، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر.

3 – أسباب ودوافع جمع القرآن في مصحف واحد مرتب الآيات:

لما حدث الاختلاف في القرآن – بعد تفرق المسلمين في الأمصار على أيّام سيدنا عثمان رضي اللّه عنه وبلغ من ذلك أن المعلمين والصّبية كانوا يقتتلون في المكاتب لأن الصّبية يرجعون إلى آبائهم فيسمعون منهم غيرما سمعوه من معلميهم، وعاد حذيفة بن اليمان من قتال أرمينية فلم يدخل بيته حتى أتى الخليفة فقال له: أدرك الناس يا أمير المؤمنين قبل أن يختلفوا في الكتاب، فلم يتوان عثمان بقية يومه وأرسل إلى السيدة حفصة يطلب منها النسخة التي أودعها أبوها عندها قبيل وفاته، وقبل أن ينتخب الخليفة بعده، وأمر زيد بن ثابت وعبد اللّه بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحار ث بن هشام أن ينسخوها، ثم عارضها على ما يحفظه، وهو يحفظ القرآن كلّه، وعارضها على ما يحفظه سائر الصحابة فخلصت له النسخة

المتفق على قراءتها وترتيب آياتها، فلم يحجم بعد ذلك عن أمر كان غيره خليقا أن يهابه أمر بعد حصول هذه النسخة لديه فأباد كل ماعداه احراقا ومحواً وأخذ (العسب والرخاف والجلود) التي لم تختلف ولم تجتمع على ترتيب فدفنها بين القبر والمنبر، وأرسل من (المصحف) كما جمعه نسخا إلى الأمصار يعتمدونها ولا يقرأون في غيرها، وقد اختلف العلماء والرواة في تحديد عدد المصاحف المرسلة.

وقال الإمام أبو عمر الداني: أكثر العلماء على أن عثمان – رضي اللّه عنه – كتب أربع نسخ، وبعث منها واحدة إلى البصرة، وواحدة إلى الكوفة، وواحدة إلى الشام، وواحدة له.

وقال أبو حاتم السجستاني: كتب عثمان سبعة مصاحف واحد إلى مكة، وواحد إلى الشام، وواحد إلى اليمن، وواحد إلى البحرين، وواحد إلى البصرة، وواحد إلى الكوفة، وواحد حبسه إلى المدينة.

هذه خلاصة ما يتعلق بجمع المصحف في عهد سيدنا عثمان – رضي اللّه عنه – وفيه أحاديث كثيرة في الصحيح.

أما في النطق بالمصحف ففيه لغات منها: مُصْحَفٌ – مِصْحَفٌ – مَصْحَفٌ – والضم والكسر مشهوران، والفتح ذكره أبو جعفر النحاس واللّه اعلم.

وهذا العمل – في نظري – هو من أعظم حسنات سيدنا عثمان – رضي اللّه عنه – في تاريخ الإسلام.

وبهذا العمل الجليل نسب (المصحف) إليه فيقال: (المصحف العثماني) وهو باتفاق الخالفين بعده ألزم ما كان لازما من أعمال العناية بحفظ القرآن الكريم – وبقي القرآن محفوظا وسيبقى إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها.

هذا وقد حاول بعض الكتاب محاكاته في الأسلوب فلم يفلحوا، فالقرآن باعتباره كتابا أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، لا يجرأ النقد البياني على أن يطير في جنباته وباعتباره معجزة الرسول تحدى به العرب أن يأتوا بسورة من مثله، تورع المسلمون عن أن يقلدوه فرارا من تهمة المعارضة، وتنزيها لكلام الخالق أن يتشبه به كلام المخلوق، ممّا لا ريب فيه أن بعض المشركين والمتنبئين قد عارضوه إبطالا لحجته، أو انتهاجا لخطته، على نحو ما ورد عن مسيلمة "يا ضفدع بنت ضفدع! نقي ما تنقين، فلا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين" ولكن الرواة أغفلوا ذلك، إما تورعا وإما ترفعا، كما فعلوا بمعارضة، ابن المقفع والمتنبي وأبي العلاء، إن صح أنهم فعلوا ذلك. وهناك طائفة من متأخري الكتاب حاولوا الجري على أسلوب القرآن اعجابا به فما حركوا في النفوس غير السخر والضجر لتزولهم عن رتبته وعجزهم عن لحاقه فكفوا. ولذلك لم يكن تأثير القرآن كبيرا من جهة احداثه مذهبا كتابيا يتبعه الناس ويدور عليه النقد. أما تأثيره القوي فكان في نقله النثر من تلك الجمل القصيرة المسجوعة المفككة إلى تلك الصورة الأنيقة التي تقرأها في أحاديث الرسول وخطبه وكتبه وفي خطب الصحابة والتابعين ورسائلهم، جمل متزاوجة متناسقة، متطابقة متخيرة الألفاظ، حسنة التأليف، رائعة التشبيه منطقية الغرض، تنفذ من العقل والقلب إلى الصميم. كذلك أثر في النثر بوضعه، المُثَلُ لمعالجة القصص والوصف والاشتراع والجدل المنتج والموعظة الحسنة، واستحداثه ألفاظا وتراكيب وموضوعات لا يعرفها العرب، فضلت آيُهُ على طوال القرون قوة للخطيب وحلية للمنشئ يرصع بها كلامه فتتميز بطلاوتها ونفاستها كما تتميز اللؤلؤة الفريدة في عقد من الجزع.

الفصل الثاني

ب – كيف ومتى وأين نزل القرآن؟

1 – النزول:

نزل القرآن أول ما نزل على رسول اللّه ﷺ وهو بغار حراء، على بعد ثلاثة أميال من "مكة" في شهر رمضان، وقد اختلف الرواة في اليوم الذي تم فيه النزول، فهو في أقوالهم، السابع أو السابع عشر أو الرابع والعشرين، كما اختلف في سنة نزوله، أتكون السنة الأربعين بعد عام الفيل، والرسول آنذاك في الأربعين من عمره، أم الحادية والأربعين؟

وكان أول من نزل من القرآن على القول الراجح ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ ثم نزلت سورة المدثر كاملة فكانت أول سور من سور القرآن تنزل كاملة، أما سورة اقرأ فلم ينزل منها سوى ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ وقد استمر نزول القرآن نيف وعشرين سنة.

وقد بلغت سور القرآن: – 144 – سورة، وبلغت عدة الآيات في هذه السور – 6236 – آية – قسمت السور إلى ثلاثين جزءا وقسم الجزء إلى حزبين، والحزب إلى أربعة أرباع، هذا برواية حفص، أما برواية ورش، فقد قسم الحزب إلى أرباع وأثمان.

2 – نزول القرآن على سبعة أحرف:

وقد ورد حديث يقول: "أنزل القرآن على سبعة أحرف" وقد اختلف في معنى هذا الحديث، على نحو أربعين قولا، نجمل أهمها فيما يأتي:

1 – المراد سبع لغات، وهي لهجات يتكلم بها العرب، واعترض على هذا الرأي بأن لغات العرب أكثر من سبع، فقيل المقصود هو أفصح تلك اللغات.

2 – وقيل بأن الأحرف السبعة هي سبع قراءات للفظ القرآن، منها الصحيح والشاد والضعيف والمنكر.

3 – وقال ابن قتيبة: إن المراد الأوجه التي يقع بها التغاير، فأولها ما يتغير حركته ولا يزال معناه ولا صورته مثل: ﴿وَلاَ يُضَارَّ كَاتِبٌ﴾ بالفتح أو الرفع، وثانيها ما يغير بالفعل من أمر وكان في صيغة الطلب أو الماضي، وثالثها ما يتغير باللفظ مثل: ﴿ننشرها وننشزها﴾ ورابعها ما يتغير بإبدال حرف قريب المخرج مثل: ﴿طَلحٍ مَّنْضُودٍ وَطَلَعٍ مَنْضُودٍ﴾ [الواقعة: 29]، وخامسها ما يتغير بالتقديم والتأخير مثل: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ بدلا من ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوتِ﴾ وسادسها ما يتغير بزيادة أو نقصان مثل الذكر والأنثى: ﴿وَمَا خَلَقَ الْذّكَرَ وَالأُنْثَى﴾ وسابعها ما تغير بإبدال كلمة بأخرى مثل: ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ ﴿والصوف المنفوش﴾ [القارعة: 05].

4 – وقال رأي رابع: الكلام لا يخرج عن سبعة أوجه في الاختلاف، في الأسماء: الإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث، وفي الأفعال: من ماض، ومضارع، وأمر، والثالث وجره الإعراب من نصب ورفع وخفظ، والرابع: النقص والزيادة، والخامس: التقديم والتأخير، والسادس: الإبدال والسابع: اختلاف اللغات واللهجات، (كالفتح والإمالة والترقيق والتفخيم والإدغام والإظهار) ونحو ذلك.

– تسمية القرآن:

واختلف أيضا في تسمية القرآن: فقائل أنه أطلق عليه القرآن اسما خاصا به، كالإنجيل والتوراة، غير مشتق، خاص بكلام اللّه، وقد سمي قرآنا، ليختلف عن ما يسمى به العرب بمجموع أشعارهم وهو: "الديوان" وسمي القسم من كلامه: "سورة" ليختلف عن "القصيدة" عند العرب، وسميت أجزاء السورة "بالآية" بدلا من بيت الذي هو جزء القصيدة، وسمي آخر الآية" "فاصلة" بدلا من قافية في الشعر العربي.

وقيل أنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء لأنه يقرن السورة بالسورة.

وقيل مشتق من "القرائن" لأن آيات اللّه يصدق بعضها بعضا وكقيل أنه مشتق من "القرء" أي الجمع.

ويسمى القرآن أيضا" (بالكتاب، والكلام، والنور، والهدي، والرحمة، والفرقان، والشفاء، والموعظة، والذكر والحكم، والقول، والنبأ العظيم وأحسن الحديث، والمثاني، والتنزيل، والروح، والوحي، والبصائر والبيان، والعلم، والعلم، والحق، والصدق، والعدل، والأمر، والبشرى، والبلاغ).

ويهمنا هنا أمران، أولهما: كيف كانت تنزل الآيات؟ وثانيهما: كيف جمع القرآن؟ لأن ما يتعلق بهاتين الناحيتين موضح بأجلى بيان إن القرآن وإن كان كتابا سماويا، كان للنّاس أعظم نصيب في جمع آياته، وتحديد أحكامه.

والقرآن وهو دستور الدين الإسلامي، وكتابه المبين، يحمل من خصائص الدين الإنسانية ما يحمله الدين نفسه.

خذ مثلا أن هذا القرآن لم ينزل مرة واحدة على الرسول، ولم يصدر كما تصدر شرائع هذه الأيام، دفعة واحدة، فقد قلنا أن الوحي المستمر ينزل بأي القرآن وأحكامه اثنين وعشرين سنة.

ويقول اللّه سبحانه وتعالى:﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ [الإسراء" 106] ورد على اعتراض المشركين: ﴿وَقَالَ الذينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ وأجاب عن ذلك إجابتين فقال: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: 32] وقال تعالى: ﴿وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: 33] فنزول القرآن مقسطا أو منجما، طوال هذه السنوات، كان ليثبت قلب الرسول في وجه الصعاب التي تعترض سبيله، وبطء الناس في الالتفاف حوله، والالتفاف إليه، وما يراه من ضعف الناس،

وشدة جزءهم في الأدبار، وعظيم فرحهم في الإقبال، وادعائهم غير ما يضمرون، وطلبهم ما لا يستحقون، وكان أيضا ليقرأه الناس على مكث، لتستقر معانيه في النفوس ولكي لا يأتي المشركون بمثل، إلا ويرد عليه القرآن بأحسن منه وليفسره، ويبين فيه وجه الحق.

وقد جاء في كتاب تاريخ التشريع الإسلامي الشيخ محمد الخضري:

"وكانت الآيات التشريعية، وهي آيات الأحكام، تترل على رسول الله ﷺ في الغالب جوابا لحوادث في المجتمع الإسلامي، تترل وتعرف هذه الحوادث بأسباب الترول وقد اعتنى بها جماعة من المفسرين وألفوا فيها كتبا، وجعلوها أساسا لعلم القرآن، وأحيانا كانت تترل الآيات جوابا عن أسئلة يسألها بعض أصحابه وقليلا ما كانت تترل الأحكام مبتدئة".

وفي القرآن من الآيات ما يدل بعضها على أنها جواب لأسئلة منها:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: 85]، **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّة قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾** [البقرة: 189]، **﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِّنَ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ﴾** [البقرة: 215]، **﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى﴾** [البقرة 222]، **﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَة أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾** [النازعات 42]، **﴿يَسْأَلُونَ عَنِ الانفَال قُلْ الأنْفَالُ لِلَّه وَالرَّسُولِ﴾** [الأنفال: 1]، **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُمْ مِّنْهُ ذِكْرًا﴾** [الكهف: 83]، **﴿وَيَسأَلُونَكَ عَنِ الجبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي﴾** [الأنفال: 31]، **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾** [البقرة: 219]، **﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلِ اصْلاَحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾** [البقرة: 220].

وجلي أن هذه الأسئلة، شملت الصغير والحقير، وما يتعلق بالغيب، وما يتعلق بشؤون العيش، فمن الروح إلى الحيض ومن الساعة إلى الخمر، ومن الأنفال إلى الهلال، وهكذا...

أنه كتاب للناس حقا، لا يحتقر خاطرا يجول برأس إنسان، ولا يتعالى عن سؤال من امرأة أو أعمى ضرير.

نزل القرآن بأنه لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدين في سبيل اللّه [النساء: 95] فجاء أعمى يشكو فأصبحت الآية: ﴿لاَ يَسْتَوِي القَاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ﴾ [النساء: 95].

3 – تقسيم سور القرآن إلى مكي ومدني:

وقد قسم القرآن إلى مكي ومدني، والمكي عموما هو ما أنزل في المدينة وما حولها كبدر واحد، وقد اختلف العلماء فيما يعتبرونه مكيا، وما يعتبرونه مدنيا، فكانت لهم في ذلك ثلاثة مذاهب:

الأول: أن المكي ما نزل قبل هجرة الرسول، والمدني ما نزل بعدها، سوى نزل بمكة أو بالمدينة عام الفتح أو عام حجة الوداع، أو بسفرة من الأسفار.

والثاني: أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل بالمدينة.

والثالث: أن المكي ما وقع خطابا لأهل مكة، والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة.

ونحن لا يهمنا بيان هذا المذهب في ذاته إلا من ناحية التدليل على أن نزول القرآن، كان صدى لما يجري في المجتمع الإسلامي، وانه كان يسجل أحداثا، ووقائع الحركة الإسلامية، في مدها وجزرها، وفي اصطدامها بالمشركين، وتعثرها في العقبات، وفي انتصارها على الخصوم، وقهرها إياهم، ودحض أكاذيبهم وتفنيد دعاويهم.

ولذلك يقولون إن صيغة الخطاب في الآيات المكية هي ﴿يَا أَيُّهَا النَّاس﴾ ﴿ويا بني آدم﴾ في جين أن صيغة الخطاب في الآيات المدنية: ﴿يَا أَيُّها الذين آمنوا﴾.

ويقولون أن السور المكية خلت من آيات الأحكام، إذ أن هذه الآيات نزلت في القسم المدني من القرآن، ذلك أن الإسلام من مكة كان في مرحلة الدعوة، وجمع الأنصار ولم يكن المجتمع الإسلامي قد تكون بعد، إذ أن المسلمين كانوا

قلة، وكانوا يعانون عدوان الأكثرية القريشية وحصارها لهم، ومقاطعتها إياهم، فلما تمت الهجرة واستطاع المسلمون أن ينازلوا القريشيين في غزوة بدر، وان ينتصروا على خصومهم، أصبح الأمر يقتضي تشريعا، فكان التشريع.

ومن الحقائق التي تظهر اتصال القرآن بالحياة، وبالدعوة الإسلامية، وبكل ما يتصل بها، وبكل ما يثيره خصومها من حجج، إن ثلث القرآن نزل ردًا على جدل اليهود وتشكيكهم، وسخريتهم بالنبيّ وبالمسلمين.

ولما كانت إقامة الرسول في مكة أطول من إقامته في المدينة، إذ بلغت إقامته في مكة بعد الدعوة اثنتي عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوما، في حين بلغت بإقامته في المدينة، تسع سنوات وتسعة أشهر وتسعة أيام، فإن المكي من القرآن — 19 — جزءًا، والمدني: - 11 — جزءًا، وجملة الاثنين ثلاثون جزءا.

و لم يكن نزول القرآن ردًّا على الكفار والمشركين واليهود وجدلا معهم، ولا إجابة عن أسئلة المسلمين فقط، بل كان يترل أحيانا بنص العبارة التي تأتي على لسان بعض صحابة الرسول، ومما يذكر مثلا على ذلك قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: 125] فقد نزلت في سورة البقرة عام حجة الوداع، لما طاف النبي فقال له عمر: هذا مقام أبينا إبراهيم الخليل قال: نعم قال: أفلا تتخذه مصلى؟

وأغضبت بعض نساء الرسول ﷺ فاشتد عليهن عمر وقال: "لعلى اللّه يبدله أزواجا خيرا منكن"، فترلت الآية في سورة التحريم ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكُنَّ﴾ [التحريم: 05]، وقال عمر: قلت يا رسول اللّه لو أمرت نساءك أن يحتجبن، فإنهن يكلمن البر والفاجر، فترلت آية الحجاب.

وفي القرآن جانب يريك كم كان هذا الكتاب حيّا. قال الحسن: كنا لا ندري ما الأرائك حتى وفد علينا رجل من أهل اليمن، فاخبرنا أن الأريكة عندهم الحجلة فيها السّرير، فالقرآن لم يستعمل لغة الحجاز وحدها، بل

استعمل ألفاظا من لهجات جميع القبائل، "فمعاذير" هي ستور بلغة اليمن والمسطور هو الكتاب بلغة حِمْيَر، و"خاسئين" صاغرين بلغة كنانة و"شروا" باعوا بلغة هذيل، و"زيلنا" ميزنا بلغة حِمْيَر، والقطر النّحاس بلغة جرهم والرس البئر، بلغة أزد، والوصيد الفناء بلغة مذجح. ولينة نخلة بلغة الأوس.

بل إن في القرآن ألفاظا غير عربية، وقد أنكر ذلك الإمام الشافعي، وقال أبو حنيفة: إنما انزل القرآن بلسان عربي مبين، فمن زعم أن فيه غير العربية، فقد أعظم القول وقال ابن فارس: لو كان فيه من غير لغة العرب لتوهم أن العرب إنما عجزت عن الإتيان بمثله لأنه أتى بلغات لا يعرفوها.

ولكن جمهور العلماء يرى أن في القرآن عددا غير قليل من الألفاظ الأعجمية، وهذا دليل على أن اللغات في فترات حياتها وشبابها تكون من القوة والثقة بنفسها والتفتح على غيرها، بحيث تضم إلى مفرداتها ما تراه جاريا على قياس ألفاظها، وتوازن كلماتها دون خشية أو تردد.

على أن تاريخ كتابة القرآن، ثم جمعه، ثم الاتفاق على مصحف واحد، أي جمع رسمي للقرآن، وإبطال ماعداه، يزيد من ظهور خصائص هذا الكتاب الإلهي الإنسانية، واتصال نزوله، وتقرير أحكامه بالناس، وبما يجري في حياة المسلمين وما يساورهم من شكوك وما يقيمه خصومهم في وجوههم من حجج، وبما يعترض حياتهم من مشكلات العمل وعوائق الظروف وملابساتها.

4 – عظمة وآداب تلاوة القرآن[1]:

قال رسول الله ﷺ: "من قرأ القرآن ثم رأى أن أحدا أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر عظمة الله تعالى" وقال عليه الصلاة والسلام "ما من شيء أفضل منزلة عند

(1) – انظر احياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي.

الله يوم القيامة من القرآن لا نبي ولا ملك ولا غيره" وقال ﷺ: "إن الله عز وجل قرأ طه ويس قبل أن يخلق الخلق بألفي عام"، فلما سمعت الملائكة القرآن قالت طوبى لأمة يتزل عليهم هذا وطوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى لألسنة تنطق بهذا.

فإذا أردت أخي المسلم أن تكون ممن يرتل القرآن ترتيلا، وممن يتلوه حق تلاوته، فاحرص على آداب التلاوة التي وردت في الكتاب والسنة، وهي آداب عامة تشمل قارئ القرآن والمستمع إليه ومعلمه ومتعلمه، ويمكن إجمالها في الأمور التالية:

1 – الطهارة والنظافة:

يشطرط لقارئ القرآن أن يكون طاهرا من الحدث الأكبر، فلا يجوز للجنب والحائظ والنفساء قراءة القرآن أو إمساك المصحف.

قال الإمام النووي رحمه الله: أما الجنب والحائض فإنه يحرم عليهما قراءة القرآن سواء كان آية أو أقل منها، ويجوز لهما إجراء القرآن على قلبهما من غير تلفظ، ويجوز لهما النظر في المصحف وإسراره على القلب(1).

لكنه استثنى من هذا الحكم القراءة بقصد الذكر، كأن يقرأ الجنب أو الحائظ دعاء السفر وفيه قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلذي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ [الزخرف: 13] أو يقول: بسم الله الرحمن الرحيم وغير ذلك أما اشتراط الوضوء فالراجح أنه لا يجوز مس المصحف إلا بوضوء، وذلك لقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لاَ يَمُسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: 77 – 79].

ولحديث عمرو بن حزم بأن النبي ﷺ كتب إلى أهل اليمن كتابا وفيه: لا يمسّ القرآن إلاّ طاهر(1) فإذا قرأ القرآن دون أن يمس المصحف فلا يشترط الوضوء لكن يستحب.

---

(1) – التبيان في آداب حملة القرآن.

قال الإمام النووي: يستحب أن يقرأ القرآن وهو على طهارة، فإن قرأ محدثا – أي غير متوضأ – جاز بإجماع المسلمين.

كما يستحب أن تكون القراءة في موضع نظيف وأن ينظف القارئ فمه بالسواك، وقد كان الرسول ﷺ إذا قام في الليل للتهجد يشوم فمه بالسواك أي يدلك أسنانه وينظفها.

2 – التدبر والخشوع:

قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29].

وقال الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24].

فمن حق القرآن عليك أيها المسلم أن تقرأه بخشوع وخضوع وسكينة، وأن تفتح قلبك لتدبر معانيه، وهذا هو المقصد المطلوب من تلاوة القرآن الكريم، وبه تنشرح الصدور وتستنير القلوب، كما يستحب البكاء والخشوع عند التلاوة، وهذا هو شأن الصالحين.

قال الإمام السيوطي: يستحب البكاء عند قراءة القرآن، والتباكي لمن لا يقدر عليه، والحزن والخشوع قال تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾(2) [الإسراء: 109].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النّبي ﷺ: "اقرأ علي القرآن" فقلت يا رسول اللّه: اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: "إني أحب أن أسمعه من غيري"، فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قال: "حسبك الآن" فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان(3). [النساء: 42].

---

(1) – رواه الحاكم وقال حديث صحيح 3/ 485.

(2) – الاتقان في علوم القرآن السيوطي 1/ 297.

(3) – رواه البخاري – 6/ 113 – ومسلم رقم (800) باب فضل استماع القرآن.

ولقد بين ربنا سبحانه شأن القرآن الكريم فقال عز وجل: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: 21].

ووصف تأثر المؤمنين الصالحين وخشوعهم عند تلاوة القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: 02].

وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 23].

وقال سبحانه: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَانِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: 58].

أجل هذا هو حال المؤمنين الصالحين عند تلاوتهم للقرآن، طمأنينة النفوس، واقشعرار الجلود، ووجل القلوب، ودسع العيون، وعليك أيها المسلم أن تستشعر خشية الله في قلبك، وتستجلب الدموع والخشوع أثناء تلاوتك لكتاب ربك وقد نقل الإمام النووي عن الإمام الغزالي قوله: البكاء مستحب مع القراءة وعندها، وطريقةُ في تحصيله أن يحضر في قلبه الحزن، بأن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد الشديد، والمواثيق والعهود،ثم يتأمل تقصيره في ذلك، فإن لم يحضره حزن وبكاء، فليبك على فقد ذلك فإنه من أعظم المصائب[1].

ولا شك أن ممّا يزيد الخشوع التفكر في المعاني، والتاني وعدم الإسراع في التلاوة، وتفريغ الذهن من المشاغل والهموم.

روى مسلم عن حذيفة – رضي الله عنه – قال: صليت مع النّبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مسترسلا إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعوذ تعوذ[2].

---

(1) – التّبيان في حملة القرآن – ص / 69.

(2) – صحيح مسلم – باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل – رقم: (772)

– انظر شرح النووي على صحيح مسلم: 6/ 62.

– التبيان في آداب حملة القرآن: النووي – ص: 67.

هكذا كانت تلاوة الرسول ﷺ يقرأ مسترسلا والترسيل ترتيل الحروف وأداؤها حقها، ومع أنه قرأ في ركعة واحدة أكثر من خمسة أجزاء من القرآن الكريم، إلا أنه لم يسرع في تلاوتها وإنما كانت تلاوة تدبر وخشوع.

وكذلك كان الحال في عهد الصحابة الكرام والسلف الصالح، يتلون القرآن الكريم بخشوع وتدبر، ولهم فيه حنين وانين وتشنج وبكاء، كان احدهم إذا مرّ بآية فيها ذكر النار شهق شهقة كان زفير جهنم بين أذنيه.

وقد كانوا يكثرون من تكرار وترديد بعض الآيات للتدبر. ويمضون في ذلك ساعات عديدة، وهم في خشوع وبكاء، وإليك بعض الروايات التي أوردها الإمام النووي في هذا المقام.

روى النسائي عن أبي ذر - رضي اللّه عنه - قال: قام النبي ﷺ بآية يرددها حتى أصبح، وهي قوله تعالى: ﴿إِنْ تعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾(1) [المائدة: 118].

وعن تميم الداري - رضي اللّه عنه - أنه كرّر هذه الآية حتى أصبح: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُواْ السَّيِّئَاتِ أَنْ نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ [الجاثية" 21].

وعن عبادة بن حمزة قال: دخلت على أسماء - رضي اللّه عنها - وهي تقرأ: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: 27] فوقفت عندها فجعلت تعيدها وتدعو فطال عليّ ذلك، فذهبت إلى السوق فقضيت حاجتي، ثم رجعت وهي تعيدها وتدعو وكان الضحاك إذا تلا قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: 16] يردّدها إلى السّحر.

ومن الآداب العامة في تلاوة القرآن العظيم ومما يعتني به ويتأكد الأمر به، احترام القرآن من أمور قد يتساهل فيها بعض الغافلين القارئين مجتمعين.

فمن ذلك اجتناب الضحك واللّغط والحديث في خلال القراءة إلا كلاما يضطر إليه، كتشميت العاطس، ورد السلام، وليتمثل قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنْصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: 204].

---

(1) – رواه النسائي: 2/ 177 وابن ماجة رقم (1350).

وليقتدي بما رواه ابن أبي داود عن ابن عمر – رضي اللّه عنهما – أنه كان إذا قرأ القرآن لا يتكلم حتى يفزع منه ومن ذاك العبث باليد وغيرها، فإنه يناجي ربّه سبحانه وتعالى، فلا يعبث بين يديه[1].

وينبغي جمع القلب وحضوره، والقاء السمع عند تلاوة القرآن وهو الخطوة التالية لتعظيم اللّه، فإذا أعظم اللّه في قلبك عظم كلامه لديك، فتقبل على كلامه بحضور القلب والقاء السبع: قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37][2].

أخبر جل ذكره أن المستمع بأذنيه ينبغي أن يكون شاهدا بقلبه ما يتلو وما يستمع لينتفع بتلاوته للقرآن بالاستماع ممن يتلوه.

3 – تحسين الصوت بالقرآن:

الصوت الحسن يحدث أثرا في النفس، ويزيد الخشوع والتدبر، ولذلك يستحب للقارئ أن يحسن صوته بتلاوة القرآن الكريم وأن يرتله بلحن يدل على الخشوع والتأثر.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة – رضي اللّه عنه – قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: ما أذن اللّه لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به[3] ومعنى أذن: استمع، وهو اشارة إلى الرضا والقبول، وعن أبي موسى الأشعري – رضي اللّه عنه – أنّ النّبي ﷺ قال له: "لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة، لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود"[4]. فقد مدح الرسول ﷺ حسن الصوت وحلاوة نغمته.

وعن البراء بن عازب – رضي اللّه عنه – قال: قال رسول اللّه ﷺ: "زينوا القرآن بأصواتكم"[5].

---

(1) – انظر التبيان – ص – 50 – 51 – وآداب تلاوة القرآن: ص 114.
(2) – أخلاق حملة القرآن ص: 18.
(3) – رواه البخاري باب ما لم يعلم يتغنى بالقرآن 6/ 107.
(4) – رواه مسلم رقم: [793].
(5) – رواه أبو داود رقم: (1468) في الصلاة باب استحباب الترتيل في القراءة.

وعن أبي لبابة رضي اللّه عنه – أن النبيّ ﷺ قال: "من لم يتغنّى بالقرآن فليس منّا"[1].

ولقد كان السلف الصالح رحمهم اللّه يحرصون على تحسين الصوت بتلاوة القرآن الكريم زيادة في الخشوع والتدبر.

ومن هؤلاء مثلا الإمام المقرئ (يحيى بن وثاب) المتوفى في سنة (103هـ) وقد قال عنه الأعمش: "كان يحيى بن وثاب من أحسن الناس قراءة ربما اشتهيت أن أقبل رأسه من حسن قراءته، وكان إذا قرأ لم تسمع في المسجد حركة، كأن ليس في المسجد أحد"[2].

وكذلك الإمام (حمزة بن علي) المتوفى في سنة (602هـ) وقد قال عنه ابن النجار: "أكثرت عنه ولازمته، وكان موصوفا بحسن الأداء وطيب النغمة"، يقصد الناس في التراويح، ما رأيت قارئا أحلى نغمة منه، ولا أحسن تجويد، مع علوّ سنّه، وانقطاع ثنّيته[3].

وقد قال الإمام النووي: "اجمع العلماء رضي اللّه عنهم من السلف والخلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء الأمصار وأئمة المسلمين على استحباب تحسين الصوت بالقرآن... مالم يخرج عن حد القراءة بالتمطيط فإن أفرط حتى زاد حرفا أو أخفاه فهو حرام"[4].

ومن هنا نؤكد على أنّ اللحن المطرب هو الذي لا يخرج لفظ القرآن عن صيغته بإدخال حركات فيه أو قصر ممدود أو مد مقصور أو تمطيط يختل به اللفظ ويلتبس المعنى.

كما نحذر من تقليد الألحان التي تعارف عليها أهل الفسق من محترفي الغناء، فالمستحب تحسين الصوت وترقيقه بقصد التأثر والخشوع، لا بقصد الترنم والطرب.

---

(1) – رواه أبو داود رقم: (1469).
(2) – نزهة الفضلاء: 1/ 402.
(3) – نزهة الفضلاء: 3/ 1512.
(4) – التّبيان للنووي ص/ 87.

4 – الاستماع والانصات:

أمرنا اللّه سبحانه بالإنصات عند تلاوة القرآن إعظاما له واحتراما كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: 204] والإنصات: هو السكوت والإصغاء.

ولقد كان المشركون يتعمدون رفع أصواتهم باللّغو للصّد عن سماع القرآن، ظنّا منهم أنهم يمنعون تأثر الناس بآياته وبلاغته، واستجابتهم للإيمان به، قال تعالى مخبرا عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: 26]، أما المؤمنون الصالحون فإنهم يخشعون عند سماع القرآن بتدبر وتأثر.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ﴾، [المائدة: 83].

فالآية الواحدة من كتاب اللّه حينما تستمع لها وتنصت تحدث في النفس تأثيرا وانفعالا وتبعث الطمأنينة والراحة.

ولذلك من الأدب مع القرآن العظيم الاستماع له والإنصات عند تلاوته وعدم الانشغال بأي أمر آخر يصرف قلبك أو جوارحك عن تدبر آياته.

ومما ينبغي التنبيه إليه في هذا المجال تجنب رفع الصوت في قراءة القرآن في مواطن اللغو واللّغط والأماكن التي ينشغل فيها الناس بأعمالهم وتجارتهم، فض ذلك إحراج لهم لعدم تمكنهم من الاستماع إليه، كما ينبغي مراعاة ظروف السامعين واختيار الأوقات والأماكن المناسبة لذلك، بحيث تكون نفوسهم أكثر استجابة وتأثرا واستعدادا للاستماع والإنصات.

وينبغي أن يراعي حقّ آية السجدة فيسجد سواء سمعه من غيره أو قرأ هو بنفسه إذا كان على وضوء.

وينبغي أن تكون قراءته بتعظيم وتدبر، فإن اللّه تعالى لطف بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة إفهام خلقه حتى أوصل معاني كلامه الذي هو صفة ذاته إلى إفهام خلقه، وكيف تجلت لهم تلك الصفة في طي حروف وأصوات ولولا استتاركنه جمال كلامه بكثرة حروفه لما ثبت لسماع الكلام عرش ولأثري ولا تلاشي ما بينهما من عظمة سلطانه، وسبحات نوره ولولا تثبيت اللّه لموسى عليه الصلاة والسلام لما أطاق سماع كلامه كما لم يطق الجبل مبادئ تجليه حيث صار دكًا دكًا، وليكن تعظيم المتكلم حاضرا في قلبه مساوقا كأنه مبلغ له في قراءته ويظن أن اللّه تعالى يخاطبه بذلك.

5 – الاستعاذة والبسملة:

يستحب للقارئ أن يستعيد في بدء قراءته لقوله تعالى: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾ [النحل: 98].

لأن الشّيطان يحرص على صرف المسلم عن عبادة ربه، ويشغل ذهنه بأمور تمنعه من التدبر أثناء التلاوة.

قال الإمام الفخر الرازي رحمه اللّه: إن سر الاستعاذة هو اللجوء إلى قادر يدفع الآفات عنك، ثم إن أجلّ الأمور التي يلقى الشيطان وسوسته فيها قراءة القرآن، لأن من قرأ القرآن ونوى به عبادة الرحمن، وتفكّر في وعده ووعيده وآياته وبيناته، ازدادت رغبته في الطاعات ورهبته عن المحرمات، فلهذا السبب صارت قراءة القرآن من أعظم الطاعات، فلا جرم أن كان سعي الشيطان في الصد عنه أبلغ، وكان احتياج العبد على من يصونه عن شرّ الشّيطان أشدّ، فلهذه الحكمة اختصت قراءة القرآن بالاستعاذة[1].

---

(1) – التفسير الكبير للفخر الرازي: 1/ 9.

وكما تستحب الاستعاذة عند التلاوة تستحب البسملة، وبخاصة إن كان ذلك في بداية السورة، قال الإمام النووي: وينبغي أن يحافظ على قراءة بسم اللّه الرحمن الرحيم في كل سورة سوى براءة، فإن أكثر العلماء على أنها آية حيث تكتب في المصحف، فإذا أخل بالبسملة كان تاركا لبعض القرآن عند الأكثرين[1].

لعل للحكمة في الجمع بين الاستعاذة والبسملة عند التلاوة:

إن الاستعاذة طلب دفع الشر، والبسملة طلب جلب الخير، والمسلم حيث يشرع في قراءة القرآن الكريم بحاجة إلى الأمرين، فهو بحاجة إلى دفع تعلق القلب بغير اللّه واستيلاء الشيطان عليه، وبحاجة إلى التأثر بالقرآن والتدبر لآياته مستعينا باللّه على ذلك، ولذاك يجمع بين الاستعاذة والبسملة[2].

6 – الدّعاء عند الختم:

يستحب للعبد إذا وفقه اللّه عز وجل لختم القرآن الكريم أن يشكر ربه ويدعوه ويتضرع إليه قال الإمام النووي رحمه اللّه:

يستحب الدّعاء عند الختم استحبابا متأكدا شديدا[3] وقال أيضا: يستحب حضور مجلس ختم القرآن استحبابا متأكدا[4].

روى الطبراني عن ثابت: أن أنس بن مالك – رضي اللّه عنه – كان إذا ختم القرآن جمع أهله وولده فدعا لهم[5].

وعن سفيان النوري أنه قال: إذا ختم الرجل القرآن قبل الملك بين عينيه[6].

---

(1) – التبيان في آداب حملة القرآن: ص/65.

(2) – خصائص القرآن الكريم للدكتور فهد الرومي – ص/ 149.

(3) – الأذكار ص/ 156.

(4) – التبيان ص/ 125

(5) – رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(6) – المجالسة وجواهر العلم للدينوري: 2/ 259.

الفصل الثالث

أ – المنهج القرآني الثابت:

قال الله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾ [النساء: 82]، وقارئ القرآن الكريم يجد في كل ما يتصل به آيات صدق هذه الآية فللقرآن نظام يختلف عن نظام كل كلام سبقه البشر سواء كان هذا الكلام للعرب أو لغيرهم، وسواء كان هذا الكلام شعرا أو نثرا مرسلا أو موزونا فقد قسم إلى آيات، وضمت الآيات سور، واختلفت الآيات والسور، في الصياغة والمعنى، والأسلوب والمعنى، والأداء والموسيقى عن كل ما أنتجته وأبدعته قرائح الكتاب والشعراء، على مر الحقب والعصور.

ولكن لهذا النظام الثابت من حيث الصورة والشكل، منهج داخلي ثابت كذلك قد لا تلمحه العين، إلا بعد تثبت وروية، ولكن هذا المنهج الداخلي، على خفائه، أدل على أن منهج القرآن جزء من نظام قائم بدوره على قواعد ثابتة؛ هي فطرة الناس التي فطرهم اللّه عليها من جهة والنواميس الدائمة للكون من جهة أخرى.

ولسنا نستطيع أن نحصى جميع الدلائل على وجود هذا المنهج، ولكن في الوسع أن نجتزئ ببعضها. وقد يدل الجزء على الكل كما يشير القليل إلى الكثير.

1 – عناصر المنهج الثابت:

فمن عناصر هذا المنهج الثابت:

أولا: لا يأتي ذكر الخير والشر في موضع من القرآن إلا كان ذكر الخير سابقا على ذكر الشر، كما تسبق الحسنات السيئات، والثواب العقاب.

ثانيا: لا يذكر الجهاد، أولا يدعى الناس إليه إلا كان الجهاد بالمال سابقا للجهاد بالنفس.

ثالثا: لا يذكر الكثير إلا والقليل رجحت كفة الكثير.

رابعا: لا تذكر أنعم اللّه على الناس، إلا سبق السمع والبصر.

خامسا: لا يشار إلى العبرانيين، في مواضع الرضا عنهم، أو تذكيرهم بفضل اللّه عليهم، إلا وسموا باسم بني إسرائيل ولا يشار إليهم في مواضع السخط عليهم، وتعديد سيئاتهم إلا وسموا باسم (اليهود) أو الذين هادوا.

2 – أمثلة عن العناصر:

فإذا بدأنا بأول هذه العناصر الفينا ما نشير إليه من تقديم الخير على الشر في السور القصار والسور الطوال على السواء، ومن ذلك ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 8]، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: 4 – 5] ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى، فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: 4 – 10]، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 9 – 10]، ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْمَرْحَمَةِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِئَايَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾[البلد: 17 – 20]، ﴿فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي﴾ [الفجر: 15 – 16]، ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى، وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى﴾ [الأعلى: 10 – 11]، ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ، وَإِنَّ الفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: 13 – 14]، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ، تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: 38 – 41].

وتقديم الخير على الشر، والتبشير على التنفير، والثواب على العقاب، والجنة على النار، منهج يتفق مع طبيعة الإسلام، باعتباره دين الفطرة، فالأصل في الإنسان في نظر الإسلام الخير، بدلالة صريح نص الآية التين ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: 4 – 5].

فالشر طارئ على الإنسان لم يخلق به، وقصة آدم في القرآن، وهي القصة التي تروي خلق الإنسان، تؤكد أن الإنسان خلق صالحا قابلا للخير، قادرا على الإتيان به، وإن كان قد سقط في المعصية، فلأنه لم يقاوم الغواية التي أتت إليه من خارج نفسه، لذلك أمر بأن يتحصن أمامها بالإيمان أو بالتقوى ليعصماه من التردي فيها، فالله تعالى يقول في سورة الأعراف في الآية الحادية عشر وما بعدها ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لأَدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ وقال: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وفي سورة الحجر في الآية التاسعة والعشرين: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ، فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾، وفي الآية الثلاثين من سورة البقرة: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، وهذه الآيات كلها ناطقة الدلالة، بأن آدم كان محل رضا ربه، فقد سواه بيده، ونفخ فيه من روحه، وعلمه الأسماء كلها دون الملائكة، وأمر أن يسجدوا له، فسجدوا له كلهم أجمعون وقد خاطب آدم ربّه هو وزوجه، فدعاهما إلى أن يتمتعا بالجنة وخيراتها وأن يأكلا رغدا منها حيث شاءا بغير حسيب ولا رقيب، وكل أولئك دلائل الرخاء، ودلائل استحقاق آدم وزوجه هذه الأنعم، لولا أن الشيطان قد تصدى لهما، فأغواهما ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ، فَتَلَقَّى ءَادَمُ مِنْ

رَبِّهِ كَلِمَاتٌ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمِ، قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 36 – 38]، وهذه الأدوار كلها تحملها آيات سورة التين ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: 4 – 6].

فالخير أصل الإنسان، وفطرته التي فطر عليها، إلا أنه ضعيف، وقد توعده الشيطان بالغواية، فمن تبع الشيطان فقد تردى إلى أسفل سافلين، ولكن من تاب وعاد إلى الإيمان، واستعصى على الشيطان فله أجر غير ممنون.

ومن ثم كان من الطبيعي أن تستبق الإشارة في القرآن إلى الخير الإشارة إلى الشر، والبشرى بالجنة الإنذار بالنار، وثواب الصالحين المحسنين عقاب الكافرين المذنبين، ولو افترض القرآن أن الشر أصل الإنسان وفطرته التي فطر عليها، لكانت الدعوة إلى الدين عبثا من العبث، إذ لا يستطيع الإنسان أن ينسلخ من طبيعة خلق عليها، ولا أن يخرج منها، ولكان الإيمان لونا من الخوارق قد لا يتم إلا نادرا، ولا يتأتى إلا لصفوة الصفوة الذين لا يجود الزمان بهم إلا في الحقب المتباعدة، وفي الآماد المتطاولة.

فالآيتان تقصدان مطلق الإنسان، وهما تتحدثان عن الإنسان الذي قال في حقه رسول الله ﷺ: أن الله خلق آدم على صورته، وفي رواية أخرى: وعلى صورة الرحمن.

فمطلق الإنسان بجسمه وعقله وروحه ونفسه، وطاقاته العظيمة، وقدراته الهائلة، وطموحه إلى الخير وحبه غير المتناهي للعلم، وميله إلى المخاطرة ودأبه على التجديد والتطوير، والكشف والإبداع، وتضحيته بذاته وماله، من أجل فكرة مؤمن بها، أو عقيدة يطمئن إليها، هو تجسيد حي للفظي ﴿أحسن تقويم﴾.

إلا أن الإنسان يطوي في بناء جسمه من الأجهزة التي أعدها الخالق سبحانه وتعالى لتبقى على الإنسان الفرد، وعلى الإنسان الجنس، وهما غريزتا حب الطعام والتناسل، وهما جهازان يجعلانه قريبا من الحيوان شبيها له، بل أكثر ضراوة منه، وأشد ميلا على الفتك والقتل، وأبرع في ابتداع أسباب الدمار والهلاك، لنفسه ولجنسه ولذويه وأهل وطنه وملته،وهو بهذا يهبط إلى أسفل سافلين، متأثرا بغواية الشيطان، فالإنسان قابل للغواية، بحكم غرائزه اللازمة للبقاء عليه فردا وجنسا: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: 115].

ومن هذا كله كان منهج القرآن قائما على تقديم الخير على الشر، وتقديم التبشير على التنفير، وتقديم الحسنات على السيئات فمنهج القرآن: الأخلاق، وهدفه التربية والتقويم، ولا أمل في دعوة ولا نصيحة ولا دين أو عقيدة إلا إذا اطمأن الإنسان إلى أن أبواب الخير مفتوحة أبدا، وأن السعي من أجل الأخوة، والمثل الأعلى، فتسير على الدوام، وهذا ما فعله القرآن، ونجح فيه كأعظم ما يكون النجاح.

وقد يتصل بهذا العنصر من عناصر المنهج القرآني الثابت أن يكون الجهاد بالمال سابقا على الجهاد بالنفس، والأمثلة على ذلك: ﴿إِنَّ الذينَ ءَامَنُواْ وهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالهم وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: 72]، ﴿الَّذين ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللَّه بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّه﴾ [التوبة: 20]، ﴿لكنَ الرَّسُولَ وَالَّذينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ [التوبة: 88]، ﴿انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 41]، ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء: 95].

وقد يتساءل المؤمن عن سر تقديم المال على النفس في آيات الجهاد؟

يجد أن السر الأول هو منهج الإسلام في كل ما يتصل بالدعوة إلى الدين، (فالإسلام باعتباره دين الفطرة من جهة، ودين التقويم والإصلاح والتسامي بالإنسان إلى أعلى المراتب حتى يكاد يبلغ مرتبة الملائكة من جهة أخرى، يبدأ بالإنسان من حيث هو، فيقر لإنسان بما عليه من قصور وخوف، وحرص، على ما وجد عليه آباؤه وأجداده، وكراهية للتغيير والتطور، وإشفاق من بذل المال، وفرار من مواطن التضحية بالنفس، فالإنسان هو كذلك بادئ ذي بدء، ولكن النفس الإنسانية أشبه بالمنجم العميق، الذي إن أحسنت التنقيب فيه، والوصول إلى أعماقه وجدت الجواهر والذخائر، وبهرك ما في باطنه من نفائس وبدائع.

ويبدأ القرآن بتقرير الواقع البشري فيقول في الآية الرابعة عشرة من سورة آل عمران: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ، وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾، [آل عمران: 14].

هذه حقيقة ثابتة لا ينفع إنكارها، ولا إغماض العين عنها.

والحقيقة الثانية المتفرعة عن الحقيقة الأولى: أن الإنسان حريص على المال، أكثر من حرصه على البنين لذلك قال القرآن ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: 46]، ﴿يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ﴾ [الشعراء: 88]، ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ، اَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ [القلم: 13 – 14]، ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدًا﴾ [الكهف: 39].

أما السبب الآخر وهو الثاني لتقديم المال على النفس في آيات الجهاد، وسبب آخر يتصل بتاريخ الدعوة الإسلامية، ففي خلال ثلاثة عشر عاما فضاها المسلمون في مكة، مهبط الوحي القرآني الأول، وموطن الدعوة في أولى مراحلها، كان سبيلهم في معاملة المشركين دفع السيئة بالحسنة ﴿ادْفَعْ بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: 34]،

لذلك كان الجهاد بالمال هو أول ما يدعي إليه المسلم، وكان المشركون وكفار قريش يسلكون سبيل مقاطعة المسلمين الأوائل، ويقبضوا أيديهم على المال حتى لا يصل إلى أنصار محمد مؤملين أن يصرفهم الجوع وقلة الزاد عن البقاء معه في صفوف الإسلام، ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنْفِقُواْ عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّواْ﴾ [المنافقون: 07].

والسبب الثالث في تقديم المال على النفس في آيات الجهاد هو سنة التطور والتدرج التي سلكها الإسلام في كل ما فرضه على المسلمين فكما تدرج في تحريم الخمر وفي تحريم الربا وفي فرض العبادات على المسلمين، بما فيها من صلاة وزكاة وحج، فقد أخر الإسلام فرض الجهاد بالسلاح، ورد العدوان بالقوة حتى أكتمل إيمان المسلمين، ألفوا الحرمان في سبيل العقيدة، وتدربوا على أداء تكاليف الدعوة الروحية التي هي عصمة المقاتل، وسر ثباته، ومصدر قوته، فالذراع التي تحمل السلاح هي التي تضرب وليس حد سيف، وقلب المقاتل، هو عدته وليس قوة بدنه، ولا يهول المقاتلين الأوائل والمجاهدين الرواد، في مطلع الدعوات، ومفتتح الحركات، شيء ككثرة خصوم الفكرة الجديدة، أو الدعوة الوليدة ولا يفت في عضدهم مثل قلتهم هم، ومن هنا حرص القرآن الكريم، على التهوين من شأن (الكثير) الخبيث، والإعظام من شأن (القلة) المختارة المؤمنة بالقرآن.

وكالعهد بالقرآن يضع القاعدة العامة، ثم يردفها بما يفصلها ويبين أحكامها، ويضرب الأمثلة على صحتها، فالقاعدة في شأن الكثرة والقلة ترد في الآية المائة في سورة المائدة: ﴿قُلْ لاَ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ اَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾، ثم ترد هذه القاعدة أكثر تفصيلا في الآية التاسعة والأربعين بعد المائتين في سورة البقرة: ﴿كَمْ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، [البقرة: 249].

ثم تتوالى بعد ذلك الأمثلة على قلة جدوى الكثرة في ذاتها، وبعضها يؤخذ من حياة المسلمين أنفسهم كما ورد في الآية الخامسة والعشرين في سورة التوبة، ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: 25]، وبعد ذلك لا يرد الكثير ولا الكثرة إلا مشفوعين بما يهون من أمرهما ويحط من قدرهما إذا كان مجرد كثرة: ﴿لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ [النساء: 114]، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: 8]، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: 38] ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرِ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾، [يوسف: 40]، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُومِنُونَ﴾ [غافر:59].

ويخاطب الله تعالى الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 116]، ثم ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُومِنِينَ﴾ [يوسف: 103].

ثم يعود القرآن يصف كثرة الناس بالعيوب التي تتسم بها الكثرة عادة، قبل الإيمان والهداية، ﴿وَأَنَّ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 59]، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [الزخرف: 78]، ﴿وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 17]، ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرَهُمْ إِلاَّ ظَنًّا﴾ [يونس: 36].

بقي أن نضرب مثلين على المنهج الثابت للقرآن الذي تلمحه العين على خفائه، يسرى في آيات القرآن سريان الماء في النبات، يبدأ من الجذور إلى إلى الساق إلى الفروع، ويبعث فيه الحياة.

المثل الأول هو تقديم السمع على البصر، في كل موضع في القرآن، عددت فيه أنعم الله على النّاس، وذكرت الجوارح التي يتصل عن طريقها الإنسان بالعالم الذي يعيش فيه.

يتقدم السمع على البصر باعتبارها نعمتين من نعم اللّه، ويتقدم السمع على البصر عندما يذكران في موضع حرمان الكفار والمشركين والضالين منهما، باعتبارهما رمزا على الهداية، وأداة للإيمان وبتقدم السمع على البصر عندما يذكر القرآن الكريم أسماء اللّه الحسنى وصفاته جل وعلا فلننظر إلى الأمثلة لنر هذا الثبات المثير لأعظم الدهشة: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ﴾ [يونس: 31]، ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾ [هود: 20]، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأفْئِدَةَ﴾ [النحل: 78] ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: 36] ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ [المؤمنون: 78]،﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ﴾ [السجدة: 9]، ﴿قُلْ أَرَآيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ [الأنعام: 46]، ﴿أَنْ يَّشْهَدْ عَلَيْكُمْ سَمْعَكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ﴾ [فصلت: 22]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ [البقرة: 20]، ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾ [فصلت: 20]، ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: 1]، ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: 134]، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمْ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: 23]، ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: 18]، ﴿قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: 46]، ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: 20]، ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ [الزخرف: 40]، ﴿وَالّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِئَايَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: 73]، وفي القرآن ما يزيد على ثلاثين موضعا وصف فيه اللّه تعالى وتبارك ذاته بأنه ﴿السّميع العليم﴾، يمكن الرجوع إليها.

ولم يكن هذا التقديم اعتباطا، وإلا ما التزمه القرآن من أوله، إلى آخره التزاما دقيقا، ولكن لهذا الترتيب ما يسوّغه.

- **أولا**: فالسمع هو أسبق حواس الطفل إلى وصلِه بالكون الذي نعيش فيه، فعينا الطفل تقع عليها المرئيات دون أن تنقلا إليه، معنى، لأن الصورة لا تفهم في ذاتها إلا مرتبطة بقدر من المعرفة يتأتى للطفل في حين أن الطفل يستجيب لدى أول ميلاده للأصوات المزعج منها والمؤنس، ولذلك يحصن الطفل ضد صدمات الصوت، مما يبعثونه من أصوات في اليوم السابع لمولده.

- **ثانيا**: إن حاسة البصر على علو مقامها عند الإنسان لا تبلغ حاسة السمع في اتساع المدى، وفي القدر على الشمول والإحاطة، فالإنسان يرى في اتجاه واحد، في حين أنه يتلقى الأصوات في آن من كل جهة تحيط به سواء كان مستقبلا مصدر الصوت أو مستدبرا وسواء كان السامع في الخلاء أو وراء جدار داخل أبنية، فالإنسان يسمع وهو في فراشه ملتحق بغطائه، صوت الذئب في الحقل أو الغابة وبينه وبين مصدر الصوت أمتار وأمتار، وهو لا يدري في أي موقع من الغابة، أو الحقل يكمن صاحب الصوت، كما يسمع وهو جالس في بيته بين أهله أصوات البنادق والمدافع تقع على بعد أميال منه، ويميز بين صوت وصوت ثم إن أكثر معرفة الإنسان عن إذنيه، ويرمز بالسمع للطاعة والهداية والانقياد، والعلم الحديث جعل السمع وسيلة الاتصال بالدنيا كلها عن طريق أجهزة الاستماع التي بلغت كفايتها إلى أبعد الحدود وأعلاها، أما الإذاعة المرئية فلا تزال متخلفة وراء الإذاعة المسموعة بكثير، وإن كان من الممكن أن تلحق بها عن طريق الأقمار الصناعية.

- **ثالثا**: إن فقدان البصر مصاب جلل عند الإنسان، ولكن الأعمى يبقى على اتصال بالجماعة التي يعيش فيها بفضل حاسة السمع، أما الأصم فتنعدم صلته بالجماعة إذ لا يملك وسيلة التفاهم معها، وتلقى عواطفها ومشاعرها، والوقوف على أرائها وخواطرها.

- **رابعا**: وصف اللّه تعالى ذاته بأنه سميع، لان السمع معناه عند عباد اللّه الاستجابة لهم، والرحمة بهم، في حين أن البصر معناه مراقبة أعمالهم،

والوقوف على ما يخفونه من أخطائهم وآثامهم، والناس لا تكف عن التوبة إلى الله سبحانه وتعالى، تلتمس عنده العون وتطلب منه الثواب للعبرانيين في القرآن اسمان فهم تارة (اليهود) وتارة ثانية (بنو إسرائيل) ولكن الاسم الأول، لا يرد إلا في حالة الغضب والتنديد، في حين لا يرد الاسم الثاني إلا حيث يذكر الله أنعمه على بني إسرائيل، أو يذكرهم بها، أو يعبر عن رضاه عنهم، في مرحلة من مراحل حياتهم كثيرة التقلب ولليهود اسم ثالث هو: (الذين هادوا) وهو لا يرد في الأغلب الأعم إلا في حالتي السخط عليهم أو التنديد بسيّئات أعمالهم عند موضع أو موضعين.

وإليك الشواهد على ما قدمنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: 51]، ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ [المائدة: 64]، ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ﴾ [المائدة: 82]، ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا﴾ [آل عمران: 67]، ﴿مِّنْ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [النساء: 46]، ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: 160]، ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: 41]. ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُواْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ﴾ [الجمعة: 6].

أما اسم بني إسرائيل فيرد في المواضع التالية: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَاءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الأعراف: 137]، ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الْطَّيِّبَاتِ﴾ [يونس: 93]، ﴿يَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ [طه: 90]، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوءَةَ﴾ [الجاثية: 16].

ومسوغ هذه التفرقة أن إسرائيل هو يعقوب، ويعقوب من أنبياء الله، وهو ابن نبي هو اسحاق، وحفيد نبي هو إبراهيم، فهو حلقة في سلسلة صالحة من الأنبياء والصالحين فنسبة أحفاده إليه، وتسميتهم باسمه، أقرب إلى الاعزاز

والتدليل منه إلى مجرد التسمية المجردة من العطف أو السخط، ولذلك لا يستقيم القول أن ننسب اليهود إلى أبيهم الذي اصطفاه اللّه على الناس، واختاره للرسالة، ثم يلعنون أو تذكر سيئاتهم، أما اسمهم العام الذي لا يذكر فيه اسم أبيهم، فلا بأس من ايزاده مقرونا بما يستحقونه من التعنيف والتنديد.

- كيف استطعنا أن نتبين المنهج:

لعلنا استطعنا نتبين هذا المنهج الثابت في القرآن الكريم الذي توزن فيه الألفاظ مهما صغرت، والأسماء مهما دقت بميزان عام شامل، يستند إلى روح الإسلام، ونظره إلى الأمور، وإلى الأعمال فلا يشد عن هذا المنهج لفظ ولا عبارة.

وقد لا نتبين ما في هذا المنهج وبنائه من إعجاز إلا إذا ذكرنا أن القرآن لم يترل على رسول اللّه ﷺ دفعة واحدة وأنه نزل منجما على مدى اثنتين وعشرين سنة، ونيف، في حساب من لا يعد سنوات عدم الترول.

وأنه نزل في مائة وأربع عشرة سورة، وأن عدة الآيات في هذه السور: 6236 آية.

ولم يترل القرآن على رسول اللّه في بلدة واحدة، بل نزل بعضه في مكة، وقدر ذلك: 19 جزءا من ثلاثين جزءا يحتويها القرآن، والباقي وقدره: 11 جزءا نزل في المدينة، ونزل بعض القرآن في مواضع بين مكة والمدينة، ونزل في السلم والحرب، والهزيمة والنصر، في فترات الشدة، ومراحل الفرج، أفلا يكون لكل هذا الزمن الطويل، وهذه التقلبات الكبيرة والشدائد المتلاحقة أثر في هذا المنهج، فيبقى ثابتا لا يهتز، واضحا لا يغمض، واحدا لا يتعدد، فهذه آية من آيات إعجاز القرآن، جديرة بأن تستوقف النظر، وتملا النفوس إعجابا، وتملأ القلوب خشوعا.

الفصل الرابع

1 – سور القرآن الكريم المبدوءة بحروف مفردة:

من سور القرآن الكريم، تسع وعشرون تبدأ بحروف مفردة هي:

الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والهاء والقاف والنون.

أما هذه السور فهي:

البقرة ثم آل عمران فالأعراف فيونس فهود فيوسف فالرعد فإبراهيم فالحجر فمريم فطه فالشعراء فالنمل فالقصص فالعنكبوت فالروم فلقمان فالسجدة فسورة (يس) فص فسورة غافر ثم سورة فصلت فالشورى فالزخرف فالدخان فالجاثية فالأحقاف فسورة (ق) فالقلم.

وتتوالى هذه السور في ثلاثة مواضع: فأولى تلك السور وثانيها هي: البقرة وآل عمران في بداية المصحف الشريف، ثم تأتي سورة الأعراف وهي السورة السابعة وحدها، ثم تتوالى على التتابع في السور العاشرة والحادية عشرة فالخامسة، ثم ينقطع تواليها حتى سورة مريم التاسعة عشرة لتليها سورة طه ثم يبدأ التتابع ثانية واضحا ومتصلا في موضعين: أولهما يبدأ بسورة الشعراء أي السورة السادسة والعشرين، فتليها السورة السابعة والعشرون والثامنة والعشرون والتاسعة والعشرون والثلاثون فالحادية والثلاثون فالثانية والثلاثون ثم ينقطع التتابع يستأنف بسورة (يس) وهي: السادسة والثلاثون وسورة (ص) وهي الثامنة والثلاثون، ليبدأ التتابع ثانية من السورة الأربعين إلى السورة السادسة والأربعين بلا انقطاع، ثم تأتي كل من سورتي (ق) وهي الخمسون (القلم) وهي الثامنة والستون كل في موضع كما ترى.

وقد تحدث بطبيعة الحال جميع المفسرين. القدامى والمحدثين، عن هذه الحروف، وقد اخترنا أن ننقل بصددها بعض ما أورده الإمام أبو البركات عبد اللّه ابن أحمد بن محمود النسفي في مدارك التنزيل وحقائق التأويل قال:

ألم ونظائرها أسماء أسماء، مسمياتها الحروف المبسوطة التي منها ركبت الكلم، فالقاف تدل على أول حروف (قال) والألف تدل على أوسطها واللام تدل على الحرف الأخير منها، وكذلك ما أشبهها، ثم الجمهور على أنها أسماء السور، وقال ابن عباس رضي اللّه عنهما: أقسم اللّه بهذه الحروف وقال ابن مسعود رضي الله عنه: أنها اسم اللّه الأعظم.

وقيل أنها من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا اللّه، وما سميت معجمة إلا لإعجامها وإبهامها.

وقيل ورود هذه الأسماء على نمط التصدير كالإيقاظ لمن تحدى بالقرآن كالتحريك للنظر في أن المتلو عليهم قد عجزوا عنه عن آخرهم، كلام منظوم من عين ما ينظمون من كلامهم، ليؤديهم النظر إلى أن يستيقظوا انه لم تتساقط مقدرتهم دونه و لم ينظر عجزهم عن أن يأتوا بمثله بعد المراجعة المتطاولة، وهم أمراء الكلام، إلا لأنه ليس من كلام البشر، وانه كلام خالق القوى والقدر، وقيل إنما وردت السور ليكون أول ما يقرع الأسماع مستقلا بوجه من الإغراب وتقدمه من دلائل الإعجاز، وذلك أن النطق بالحروف أنفسها كانت العرب فيه مستوية الأقدام، الأميون وأهل الكتاب، بخلاف النطق بأساسية الحروف فإنه كان مختصا لمن خط وقرأ وخالط أهل الكتاب وتعلم منها، وكان مستبعدا من الأمي التكلم بها استبعاد الخط والتلاوة، مع اشتهار أنه لم يكن ممن اقتبس شيئا من أهله، حكم الأقاصيص المذكورة في القرآن التي لم تكن قريش ومن يضاهيهم في شيء من الإحاطة بها وأن ذلك من جهة الوحي، وشاهد على نبوته.

ثم أورد النسفي حقائق عن هذه الأحرف فقال: واعلم أن المذكور في الفواتح نصف أسامي حروف المعجم، وهي: الألف واللام والميم والصاد والراء، والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون، في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم، وهي مشتملة على أنصاف أجناس الحروف فمن المهموسة نصفها: الصاد والكاف والهاء والسين والحاء، ومن المجهورة نصفها: الألف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والياء والنون، ومن الشديدة نصفها: الألف والكاف والطاء والقاف، ومن الرخوة نصفها: اللام والميم والراء والصاد والهاء والسين والعين والحاء والياء، ومن المنفتحة نصفها، الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون، ومن حروف القلقلة نصفها: القاف والطاء، ثم قال: واختلفت أعداد حروفها: مثل: ص، ق، ن، طه، طس، يس، حم، ألم، ألر، طسم، النص، ألمر، كهيعص، حم عسق، فوردت على حرف وحرفين وثلاثة وأربعة وخمسة، كعادة افتتاحهم في الكلام. وكما أن بنيت على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف سلك في الفواتح هذا المسلك.

وما أورده النسفي في جملة، هو ما ذهب إليه المفسرون، وقد جمع القرطبي هذه الأقوال على نسق آخر، ننقل منه:

قال عامر الشعبي وسفيان الثوري وجماعة من المحدثين: هي سر الله في القرآن، ولله في كل كتاب من كتبه سرّ، فهي من المتشابه الذي تفرد الله بعلمه، ولا يجب أن يتكلم فيها، ولكن نؤمن بها ونقرأها كما جاءت وروى هذا القول عن أبي بكر الصديق وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وذكر عن عمر وعثمان وابن مسعود أنهم قالوا: الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يفسر، وقال أبو حاتم لم نجد الحروف

المقطعة إلا في أوائل السور، ولا ندري ما أراد اللّه جل وعز بها، ثم قال القرطبي: عن الربيع بن خيثم، قال: إن اللّه تعالى أنزل هذا القرآن فاستأثر بعلم ما شاء وأطلعكم على ما شاء، فأما ما استأثر به فلستم بنائليه فلا تسألوا عنه، أما الذي أطلعكم عليه فهو الذي تسألون عنه وتخبرون به، وما بكل القرآن تعلمون ولا بكل ما تعلمون تعملون.

ثم قال القرطبي: وقال جمع من العلماء كبير: بل يجب أن نتكلم فيها، ونلتمس الفوائد تحتها، والمعاني التي تتخرج عليها، ثم قال: إن ابن عباس ذهب إلى أنها اسم اللّه الأعظم، إلا أنا لا نعرف تأليفه منها، وقال قطرب والفراء وغيرهما: هي إشارة إلى الحروف الهجاء أعلم اللّه بها العرب حين تحداهم بالقرآن وانه مؤتلف من حروف هي التي منها بناء كلامهم قال قطرب: كانوا ينفرون من استماع القرآن فلما سمعوا (ألم) و(ألمص) استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له، ﷺ أقبل عليهم القرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم ويقيم عليهم الحجة، وقال جماعة: هي حروف دالة على أسماء أخذت منها، وحذفت بقيمتها، كقول ابن عباس وغيره: الألف من اللّه، واللام من جبريل، والميم من محمد وقالوا: الألف مفتاح اسمه اللّه واللام مفتاح اسمه لطيف، والميم مفتاح اسمه مجيد.

وروى عن ابن عباس قوله: (الم) أنا اللّه أعلم، و(ألر) أنا اللّه أرى، و(المص) أنا اللّه أفصل، وقال القرطبي: من عادة العرب التكلم بالحروف المقطعة ومن ذلك قول الشاعر: فقلت لها قفى فقالت: (قاف).

أراد فقالت وقفت، كما قال عليه السلام: كفى بالسيف شا معناه شافيا.

وقال زيد بن أسلم: هي أسماء للسور، وقال الكلبي هي أقسام أقسم اللّه تعالى بها لشرفها وفضلها وهي من أسمائه عن ابن عباس أيضا، ورد بعض العلماء هذا فقالوا: لا يصح أن يكون قسما لأن القسم معقود على حروف

مثل: أن، وقد، ولقد، وما، ولم يوجد منها حرف من هذه الحروف والجواب أن يقال: موضع القسم قوله تعالى: لا ريب فيه، فلو أن إنسانا حلف واللّه هذا الكتاب لا ريب فيه، لكان الكلام سويا، وتكون لا جواب القسم فثبت أن قول الكلبي وما روى عن ابن عباس سديد صحيح.

ثم قال القرطبي: فإن قيل الحكمة في القسم من اللّه تعالى، وكان القوم في ذلك الزمان على صغتين: مصدق ومكذب، فالمصدق يصدق بغير، والمكذب لا يصدق مع القسم، قيل القرآن نزل بلغة العرب، والعرب إذا أراد بعضهم أن يؤكد كلامه أقسم على كلامه واللّه تعالى أراد أن يؤكد عليهم الحجة فأقسم أن القرآن من عنده، وقال بعضهم (ألم) أي أنزلت عليك هذا الكتاب من اللوح المحفوظ وقال قتادة في قوله (ألم) قال: اسم من أسماء القرآن، وروى عن الترمذي أن اللّه أودع جميع ما في تلك السورة من الأحكام، والقصص في الحروف التي ذكرها في السورة، ولا يعرف بذلك إلا نبي أو ولي، ثم بين ذلك في جميع السورة، ليفقه الناس.

وجمع الطبري هذه الأقوال وغيرها تنقلها عنه جملة:

عن قتادة: (ألم) اسم من أسماء القرآن، هو مذهب كل من مجاهد وابن جريح وعن مجاهد أيضا (ألم) فواتح يفتح اللّه بها القرآن.

وعن زيد بن أسامة هي أسماء السور.

وعن ابن عباس هي اسم اللّه الأعظم.

وعن بن عباس أيضا: هو قسم أقسم اللّه به وهو من أسماء اللّه.

وعن ابن عباس كذلك وعن سعيد بن جبير وعن ابن مسعود:

هي حروف مقطعة من أسماء وأفعال: كل حرف من ذلك لمعنى غير معنى الحرف الآخر.

وعن مجاهد: فواتح السور كلها (ق)، و(ص)، و(حم)، (طسم)، (الر)، وغير ذلك هجاء موضوع.

وعن الربيع بن أنس: هي حروف يشتمل كل حرف منها على معان شتى مختلفة، فالألف مفتاح اسمه (اللّه) واللام مفتاح اسمه (لطيف) والميم مفتاح اسمه (مجيد) الألف ألاء اللّه، واللام لطفه، والميم مجده، أربعون سنة واللام ثلاثون سنة، والميم أربعون سنة.

وقال الطبري: كرهنا ذكر الذي حكى عنه ذلك إذا كان الذي رواه ممن لا يعتمد على روايته.

وجاء في التفسير الذي نشرته مجلة منبر الإسلام هذه حروف ابتدأها اللّه سبحانه وتعالى: ليشير بها إلى إعجاز القرآن الكريم المؤلف من حروف كالحروف التي يؤلف منها العرب كلامهم، ومع ذلك، عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن، وهي مع ذلك تنطوي على تنبيه للاستماع لتميز جرسها.

وجاء في تفسير الوسيط:

(الم) افتتح اللّه بعض سور القرآن بأسماء بعض الحروف وعددها ثمانية وسبعون حرفا في جملة السور، وهي تكرار لأربعة عشر حرفا في أوائل تسع وعشرين سورة، ومنها سورة البقرة، وأولها (ألم) وقد ذهب كثير من السلف إلى أن معاني هذه الحروف سر من الأسرار التي استأثر اللّه تعالى بعلمها، فتكون من التشابه الذي لا يعلم تأويله إلا اللّه.

أما علماء الخلف فقد حاولوا ببيان المقصود منها، لأن القرآن جاء بلغة العرب ليفهموه ومن أحسن ما قيل في ذلك أنها تشير إلى إعجاز القرآن لأنه مكون من كلمات أساسها هذه الحروف التي تنظمون منها أيها العرب كلامكم، ومع ذلك عجزتم عن أن تأتوا بمثله، وفيكم الفصحاء

والبلغاء، فإذا جاء به النبي الأمي فالله تعالى هو الذي أنزله ولم يأتي به من عند نفسه، لأنه مثلكم في الفصاحة، فإذا عجزتم عن الإتيان بمثله، فهو مثلكم في ذلك، فالقرآن فوق مقدرة البشر جميعا، ومن أحسن ما قيل أيضا: أنا المشركين قد تضافروا على ألاّ يسمعوا القرآن: ﴿وَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لِهَذَا القُرْءَانِ وَالْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: 26]، وجاء في تفسير المنار ﴿ألم﴾ هي وأمثاله أسماء السور المبتدأ به، ولا يضر وضع اسم الواحد ﴿اللّه﴾ لعدة سور لأنه من المشترك الذي يعين معناه اتصاله بمسماه وحكمة التسمية والاختلاف في ألم والمص تفوض الأمر منها إلى المسمى سبحانه وتعالى، ويسعنا في ذلك ما وسع صحابة رسول اللّه ﷺ وتابعيهم وليس من الدين في شيء أن يتنطع متنطع فيخترع ما يشاء من العلل التي قلما يسلم مخترعها من الزلل هذا الرأي للشيخ محمد عبده.

ونحب أن نورد بعض ما لاحظناه بصدد هذه الحروف، وموضعها في القرآن الكريم.

أولا: أن هذه الحروف لا تأتي إلا في أوائل السور.

ثانيا: أنها لا ترد في أوائل السور إلا مقرونة، بذكر القرآن، وبتأكيد من اللّه تعالى أنه هو الذي نزله على رسوله بالحق.

ثالثا: استثناء من هذه القاعدة، وردت هذه الألفاظ، في موضعين اثنين فقط من القرآن الكريم، غير مقرونة بذكره أو بآياته، وذلك في سورة العنكبوت: ﴿أَلَمِّ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُواْ أَنْ يَقُولُواْ آمَنَّا وَهُمُ لاَ يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: 1 – 2]، وفي سورة الروم: ﴿أَلَمِّ، غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الاَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم:1 - 4].

رابعا: لم يذكر القرآن الكريم أو آياته في أوائل سور القرآن البالغ عددها أربع عشرة سورة ومائة غير مسبوق بهذه الألفاظ المفردة إلا في سورة الزمر التي استفتحت بقوله تعالى: ﴿**تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنْ اللّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ، فَاعْبُدِ اللّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ**﴾ [الزمر: 1 - 2].

وقد وقعت سورة الزمر بين سورتين بدأنا بالألفاظ المفردة، مقرونة بذكر القرآن الكريم.

خامسا: لم يرد قسم في القرآن من اللّه تعالى إلا في أوائل السور من مثل: ﴿**وَالعَادِيَاتِ ضَبْحًا**﴾ ﴿**وَالضُّحَى وَاللّيْلِ**﴾ ﴿**وَاللّيْلِ إِذَا يَغْشَى**﴾ ﴿**وَالشّمْسِ وَضُحَاهَا**﴾ ﴿**لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيَامَةِ**﴾ ﴿**لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا البَلَدِ**﴾ ﴿**وَالفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ**﴾ ﴿**وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ**﴾ ﴿**وَالسَّمَاءِ ذَاتِ البُرُوجِ**﴾ ﴿**وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا**﴾ ﴿**وَالـمُرْسَلاَتِ عُرْفًا**﴾.

تنتقل بعد ذلك إلى التأمل في منهج القرآن، في القسم، فهو يقسم بأشياء تبدو لنا صغيرة الشأن قليلة القيمة، كالتين والزيتون، أو كالعاديات أو الخيل أو ببيت كمكة، أو بالظواهر الطبيعية كالليل والفجر والشمس والقمر، وبالرياح والنجوم ومواقعها وهو قسم يقول اللّه تعالى عنه: ﴿**وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ**﴾ [الواقعة: 75 - 76].

وغاية القرآن الكريم من القسم بهذه الأشياء الصغيرة الشأن، وبهذه الظواهر الطبيعية التي هي أثر من آثار قدره اللّه، (الطبيعية) وبالنجوم والكواكب التي هي من مخلوقاته عزّ وجل أن يلفت نظر الإنسان إليها للتأمل فيها، والنظر في النظام الذي تكون جزءا منه، ليزداد علما وحكمة وفهما لأحكام القرآن، ولأصول الدين، لأن الدين أساسه التسليم بقدرة اللّه، وبعجز الإنسان أمامه وبحاجته إلى حمايته ورعايته سبحانه وتعالى، وأنه

بار بعباده رؤوف بهم، وأن كل ما يجري عليهم مما يبدوا لهم منطويا على الخير أو الشر يمكن أن يزيدهم قوة، لو ازدادوا فهما لأحكام هذا الكون ونظامه، وإدراكا لسننه الثابتة التي لا تتحول ولا تبدل.

وقد علمنا اللّه تعالى في كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحِي أَنْ يَّضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: 26]، وقد ضرب لنا فعلا مثلا بالذبابة وخلقها فقال: ﴿إِنَّ الَذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَّخْلُقُواْ ذُبَابًا، وَلَوْ اجْتَمَعُواْ لَهُ، وَإِنْ يَّسْلُبُهُمْ الذُبَابُ شَيْئًا لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: 73].

فالقسم بالحروف لا ينبو عن أسلوبه البياني ولا منهجه الفكري، بل يتسق معهما ويتفق، وهو في المواضع التي وقع فيها مفهوم تماما بطبيعة الحال، لأنه يتحدث عن القرآن الذي هو كتاب، ولأنه كتاب فهو يتكون من ألفاظ، تتكون بدورها من حروف، فمادة الكتاب هي الحرف به يبدأ أو منه ينشأ، وتنشأ أجزاءه الصغرى فالكبرى، وعن طريقه تندفق الأفكار، وتنتقل من القائل إلى السامع ومن المخاطب إلى المخاطب به، والدعوة إلى تأمل الأشياء الصغيرة التي هي أصل الأشياء الكبيرة، هي رسالة الإسلام العقلية والروحية معا، فهو يتحدث كثيرا عن الذرة، ويلفت النظر إلى: ﴿لاَ يَعْزَبْ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الاَرْضِ﴾ [سبأ: 03]، ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَةٍ فِي الاَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس: 61]، ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: 22]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: 40]، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يرَهُ﴾ [الزلزلة: 7 – 8]، ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ اَتَيْنَا بِهَا﴾ [الأنبياء: 47]، ﴿إِنْ تَكُ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ اَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الاَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ﴾ [لقمان: 16].

فليس إذن عند اللّه شيء حقير مهما صغر، ولا يخرج عن نظامه أمر مهما صغر تافها قليل الشأن، بل إن اللّه يذكر الإنسان المرة بعد المرة بأنه ﴿مِّنْ مَآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: 20]، وبأنه ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: 12]، بل إن الشيطان طرد من رحمة اللّه، وأقصى عن الجنة لأنه لم يفهم حكمة اللّه وأبى أن يفتح عقله لنوره، إذ رفض أن يسجد لآدم، لمجرد أن آدم خلق من طين، واعتبر نفسه خيرا منه لأنه خلق من نار قال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا؟﴾ [الإسراء: 61] ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ، خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: 12].

فالتأمل في الصغير والضئيل من الأمور أو ما يبدوا صغيرا وضئيلا من أساليب القرآن ومناهجه في تعليم البشر وتعويدهم احترام مخلوقات اللّه، واستظهار قدرته، وعظمته في أصغر ما خلق: ﴿ثُمَ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: 08]، ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: 20].

فإذا كان القرآن قد وجه الخطاب إلى الكفار والمشركين، والمسلمين والمؤمنين، في شأن القرآن الكريم، في كونه كتاب اللّه، وكونه منزلا على رسوله، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وليتحمل في سبيل ذلك، أن ينصرفوا عن سماعه، وأن يشكوا في صدقه، وأن يلغوا فيه، فهذا موضع تجب فيه الدعوة للتأمل في أصل هذا الكتاب، وهذا التأمل سيستدرج المتأمل إلى التفكير في الكتب عموما، ما سبقت القرآن، وما خطه الناس بأيديهم، وسينتهي به التفكير إلى أن هذه الكتب تتكون من حروف صغيرة، تنشأ منها جمل، فماذا تكون هذه الحروف؟ هي علامات لأصوات تصدر عن الإنسان ومثال هذه الأحرف: الألف واللام والميم والراء والهاء والصاد الخ... فهل يعرف العرب هذه الحروف؟ ثم هل يدرون أنها قادرة على أن تنقل الفكر من رأس إلى

رأس، ثم من مكان إلى مكان، ثم من زمان إلى زمان، ثم من أمة إلى أمة، فإذن هي أداة خطيرة وفعالة، وليست كما تبدو علامات لا قيمة لها، ولا وزن، بل إنها جديرة بان نتعلمها، وبأن نعلمها أولادنا.

وأخيرا هي جديرة بان نفكر فيمن خلق لنا هذه الحروف، وأجراها أصواتا على ألسنتنا وجعلنا قادرين على التخاطب بها، فإذا كان الله هو الذي تفضل علينا بهذا كله، فهذا الخالق العظيم، يقسم لنا بهذه الحروف الصغيرة، بأنه كما خلقها، وكما علمنا إيّاها، خلق منها هذا الكتاب.

ولذلك جاءت هذه الأحرف، في أوائل السور، متنوعة تصدر من الحلق، وتصدر عن الشفتين، مهموسة ومجهورة، خفيفة وشديدة إلى آخر ما قاله الإمام النسفي.

وقد يكون الإنسان قادرا على أن يتصور أن في وسع كتاب أن ينقل الناس من حال إلى حال، ولكن أن يكون الحرف الصغير قادرا على هذا، فأمر يحتاج إلى تنبيه إيقاظ، وإلى ما يشبه الصدمة، فإذا أقسم الله العظيم، خالق كل شيء بالحرف فإن هذا القسم إذا فهمناه يفتح لنا عالما من التأملات في هذا الكون الرحيب الفسيح الذي خلقه لنا الله، وسخر لنا فيه القمر والشمس، والبحار والأنهار، ومهد لنا سبلا نسلكها، ونزداد بفضلها قوة وعلما، إن التفكير في الحروف وخلقها وخالقها، أفعال في نفس الإنسان وعقله من التفكير في خلق السموات والأرض، وفي اختلاف السنة الناس وألوانهم، لأن هذه الحروف تصدر عن الإنسان نفسه، ولا تكلفه جهدا، وهو لا يكف عن النطق بها، وهي مع ذلك تغير أحوال الناس، وتعلمهم، وتزيدهم قوة، وهي سبيل الإنسان ليقرأ هذا القرآن ويفهمه.

فالقسم بالحروف في القرآن، هو مظهر من أجل واكبر مظهر عظمة القرآن والإسلام معا.

فالكتاب الذي بدأ بقوله: ﴿اقرأ﴾ هو الكتاب الجدير بان يتضمن قسما من اللّه بالحروف، فليس ثمة سبيل للقراءة إلا بمعرفة هذه الحروف وتعلمها وتعليم الغير إياها.

إذن هذه الحروف قد وردت في أوائل تسع وعشرين سورة من سور القرآن الكريم.

وهو عدد الحروف الأبجدية كلها — ليقسم بها اللّه العظيم، إظهارًا لعلو مقامها، وكشفا عن أنها أصل المعرفة، وأنها باب العلم، وهو يقسم بها على حقيقة عظيمة أخرى، هي أن القرآن من عنده، وأنه لا يتكون إلا منها، ولا يوجد إلا بها، ليتحقق بهذا القسم في وقت واحد نقصان جاء الإسلام ليحققها الإنسان: أن يزيد من قدر العلم والمعرفة عنده، وأن يدفعه إلى الاسترداة منهما.

والثاني أن هذا العالم الكبير مفاتح السيطرة عليه والانتفاع به باعتباره مسخر لخدمة الإنسان المؤمن الصادق العالم، مفاتح هذا العالم، هي أمور صغيرة في رأي العين كالحروف فعلى الإنسان ان يبحث عنها، ويحيط بها، لكي يكون قويا قادرا، وعالما مؤمنا، وسعيدا صالحا، إن هذه الأحرف كما قلنا قادرة على أن تنقل الإنسان من الجهل إلى العلم، ومن الظلم إلى النور، ومن الضعف إلى القوة، فتأمل أيها الإنسان في قدرة الخالق العظيم ولا يهولنك هذا الكون الفسيح، ولا تتضاءل أمام ضخامته، وترامي أفاقه، فإنك سيده بالعلم، والعلم كما تريك الحروف، سهل ميسور، إن حرصت عليه، والتمست السبيل إليه.

يتضح من كل ذلك أن التكلم في الحروف المفردة، الواردة في تسع وعشرين موضعا من القرآن الكريم، فيه خير كثير، ومنافع للناس عظيمة، وبذلك يكون واجبا، كما قال بذلك عدد من التابعين الصالحين،

والمفسرين السابقين، ومع ذلك فإن حجة المذهب القائل بأن هذه الأحرف والغاية منها مما استأثر اللّه بعلمه فنفوض الأمر فيها للّه، قائمة على أن الأحرف بطبيعتها لا تحمل بذاتها معنى فهي ليست كالأفعال والأسماء، فالذي يقول (الف) أو (ميم) فإنه لم يقل شيئا، وما دام اللّه تعالى قد اختار أن يستفتح بها عددا في سور كتابه، فلا يجوز لنا أن نقول أن هذه الأحرف تعني شيئا ما، تدركه أفهام البشر، لأنها في واقع الأمر لا تعني شيئا مما تعارف عليه الناس، وكل محاولة منا، لإسناد المعاني إليها، هي رجم بالغيب، لا يأمن الإنسان فيها الوقوع في الخطأ.

إلا أن القرآن في جملته وتفصيله، خطاب موجه إلى الناس ليفهموه، وليتدبروه، ويعوا من حياتهم، ومن الكون الذي يحيط بهم، أمورا كانوا يجهلونها يهتدوا إلى سبل كانوا لا يفكرون فيها، وان العلم بهذه الأمور، والإهتداء إلى تلك السبل، بمثابة الخروج من الظلام إلى النور، ومن الضعف إلى القوة، ومن المهالك إلى الطمأنينة والسلام، ونسبة الاستغلاق والغموض المطلق على شيء في القرآن من لفظ أو معنى مما لا يتفق مع رسالة الذكر الحكيم، ولا مع إنزاله على رسوله، وتكليف الرسول بتبليغه وقد تواترت الآيات الدالة على ذلك، ففي سورة القمر وحدها ثلاثة مواضع جاء فيها:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: 22]، كما جاء في سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ [الإسراء: 41]، وفي سورة فصلت: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا اَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلاَ فُصِّلَتَ ءايَاتُهُ﴾ [فصلت: 44] وفي سورة الزخرف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: 03]، وفي سورة إبراهيم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ الاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: 04] وفي سورة محمد: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ اَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24].

فكل ما في القرآن معروض على أفهام الناس وعقولهم ليحاولوا فهمه، والانتفاع بما يفهمونه، وهم بطبيعة الحال متفاوتون ذكاء وصبرا، كما تتفاوت حظوظهم من توقيف، ولكنهم مهما ضؤل نصيبهم من القدرة العقلية، ومن استطاعة الإدراك والتحصيل، فهم مطالبون بأن يستعينوا بغيرهم ممن هم أكثر علما، وممن يستطيعون أن يفقهوا الناس **﴿فَاسْئَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾** [النحل: 43] **﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾** [التوبة: 122] فالجهاد الذي هو أعلى مراتب الإيمان، لا يخرج إليه المسلمون كافة، لكي يفرغ بعضهم العلم والتفقه: **﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُواْ كَافَّةً﴾** [التوبة: 122]، وليس معنى ذلك أن اللّه لم يستأثر بعلم كثير: **﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾** [الإسراء: 85]، ولكن هذا الذي استأثر به اللّه نفهم ما جاء بشأنه في القرآن ولا يكون المسلمين كرطانة الأعاجم، أو من قبيل المعميات التي تكون عنصرا في أديان أخرى، فاللّه تعالى قال: **﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ اَمْرِ رَبِّي﴾** [الإسراء: 85]، فنحن نقرأ هذا الكلام فنفهم منه كل كلمة فيه، ونفهمه جملة واحدة، وندرك من كلماته، ومن معناه أن اللّه تعالى ينهانا عن الخوض في موضوع الروح، ولكنا نعرف كلمة الروح ومدلولها، وإن كنا لا ندري طبيعة هذه الروح ولا كنهها.

كذلك جاء في القرآن الكريم عن الساعة، وموعد قيامها: **﴿يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلِ انَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾** [الأحزاب: 63]، **﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾** [لقمان: 34] وليس معنى هذه الآيات الصريحة البينة أن المسلمين لا يفهمون ما المقصود من الساعة، وأنهم لا يجوز لهم أن يفهموا معناها، وان يشرحوا هذا المعنى لمن لا يفهمه حينها، فهذا كلام عربي مبين، واضح ظاهر ولكن الذي لا يعلمه، ولا يحق لنا أن نخوض فيه، هو موعد قيام الساعة، لأن اللّه قال بصراحة: إنما علمها عنده وحده سبحانه وتعالى.

وكل المذاهب الأخرى في تفسير الألفاظ المفردة التي تقول: إن هذه الألفاظ أجزاء من أسماء أو أفعال، صرح بعضها، وأخفى بعضها الآخر أو أنها أسماء لله سبحانه وتعالى، فنحن لا نقف أمامها لنناقشها واحدا واحدا، وإنما نقول: إن كل هذه الأراء لا تتفق مع روح الإسلام، وجوهر أحكامه، إنما الإسلام دين صريح واضح يصل في صراحة أحكامه، ووضوح قواعده، إلى أقصى الحد، فهو خال تماما إلى أقصى الحد، فهو خال تماما من الألغاز والغموض، وليس فيه علم يبذل للكافة، وعلم يستأثر للأخبار ورجال الدين، إنما هو علم أبوابه مفتحة لكل مجتهد، ومادام طالب العلم يتوسل إليه بوسائله البشرية، من الإجتهاد وخلوص النية وصدق الرغبة، وسؤال من يعلم، والصبر على البحث وتحضير وسائله، فله الحق في أن يؤمل في الوصول إلى مراتب العلم، فليس في الإسلام كهنوت، ولا هيئة تفرض رأيها على المسلمين بجامها، أو سلطانها ولو كان جاه العلم، فلكل مسلم أن يختار لنفسه الرأي الذي يرتضيه، مادام قد وصل إليه بنفسه، أو بالاستعانة بسؤال ممن يحق لهم النظر في أحكام الدين والفتوى فيها.

الفصل الخامس

1 – أفضلية الحمد للّه ومغزاه:

يبدأ المصحف بفاتحة الكتاب، وتبدأ الفاتحة بلفظي (الحمد للّه)، والمتفق عليه، إن فاتحة الكتاب هي السورة الثانية التي نزلت كاملة بعد سورة (المدثر) التي نزلت بعد آيات: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: 1 – 2 – 3]، فلماذا بدأ كتاب المسلمين بحمد اللّه، ولم يبدأ مثلا بأن لا إله، إلا اللّه، وهو ما يبعث به رسول اللّه ﷺ وما أمر بأن يقاتل الناس حتى ينطقوا بها، معلنين أنهم يؤمنون بمدلولها؟

وهل صحيح أن الحمد للّه، كما قال جميع المفسرين، هي فقط الثناء الجميل على اللّه عزّ وجل، والإقرار بأنه مستحق للحمد على كل ما يحمد عليه سواه من الصفات والنعم، أو أن للّه حكمه أكبر من أن نثني عليه، وعلى صفاته، وعلى نعمائه، إقرارا بربوبيته، وادعانا لألوهيته، وشعورا بعبوديتنا لذاته، وخضوعا لأحكامه وآياته لننظر أولا إلى ما قاله المفسرون وهو في جملته متشابه.

جاء في تفسير القرطبي عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أن رسول اللّه ﷺ قال: "إذا قال العبد الحمد للّه قال صدق عبدي الحمد له" وعن أنس: "إن اللّه ليرضى عن العبد ليأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها"، وعن أنس أيضا: "ما أنعم اللّه على عبد نعمة فقال الحمد للّه إلا كان الذي أعطاه أفضل مما أخذ"، وعن أنس كذلك "لو أن الدنيا بحذافيرها بيد رجل من أمتي ثم قال الحمد للّه لكانت الحمد للّه أفضل من ذلك"، وشرح ذلك أبو عبد اللّه فقال: معناه عندنا أنه قد أعطى الدنيا ثم أعطى على اثرها هذه الكلمة حتى نطق بها، فكانت هذه الكلمة أفضل من

الدنيا كلها، لأن الدنيا فانية والكلمة باقية، هي من الباقيات الصالحات، وقيل في بعض الروايات: لكان ما أعطى أكثر مما أخذ، فصير الكلمة إعطاء من العبد، والدنيا أخذ من اللّه، فهذا من التدبير، كذلك يجري في الكلام أن هذه الكلمة من العبد، والدنيا من اللّه، وكلاهما من اللّه في الأصل، الدنيا منه والكلمة منه، أعطاه الدنيا فأغناه وأعطاه الكلمة فشرفه بها في الأخرى.

وروى ابن ماجه عن ابن عمران: أن عبدا من عباد اللّه قال: يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فعضلت بالملكين فصعدا إلى السماء وقالا: يا ربنا إن عبدك قال مقالة لا ندري كيف نكتبها، قال اللّه عز وجل وهو عالم بما قال عبده ماذا قال عبدي؟ قال: يا رب إنه قد قال: يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك، وعظيم سلطانك، فقال اللّه لهما: اكتباها كما قال عبدي، حتى يلقاني فأجزيه بها، وعن أبي مالك الأشعري: "الطهور شطر الإيمان والحمد للّه تملأ الميزان، وسبحان اللّه، والحمد للّه، تملآن أو تملا ما بين السماء والأرض".

2 – أقوال العلماء في أفضلية الحمد:

قال القرطبي: اختلف العلماء أيما أفضل: قول العبد الحمد للّه رب العالمين، أو قول لا إله إلا اللّه؟ فقالت طائفة: قول الحمد للّه رب العالمين أفضل، لأن في ضمنه التوحيد الذي هو لا إله إلا اللّه، فهي قوله الحمد للّه توحيد وحمد، وفي قوله لا إله إلا اللّه أفضل لأنها تدفع الكفر والإشراك، وعليها يقاتل الخلق، قال رسول اللّه ﷺ :"أمرت بأن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا اللّه".

ثم قال القرطبي: والحمد في كلام معناه الثناء الكامل، والألف واللام لاستغراق الجنس من المحامد فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه إذ له الأسماء الحسنى، والصفات العلا.

وقد ذهب أبو جعفر الطبري وأبو العباس المبرد على حد رواية الطبري إلى أن الحمد والشكر بمعنى واحد، وقال بعض العلماء إن الشكر أعم من الحمد، لأنه باللسان والجوارح والقلب، والحمد إنما يكون باللسان خاصة، وقيل الحمد أعم، لأن فيه معنى الشكر، ومعنى المدح، وهو أعم من الشكر، لان الحمد يوضع موضع الشكر، ولا يوضع الشكر موضع الحمد، وروى عن ابن عباس رضي اللّه عنه – أن: "الحمد للّه كلمة كل شاكر"، وأن اللّه قال لنوح عليه السلام: ﴿فَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: 28]، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [إبراهيم: 39]، وقال في قصة داود وسليمان: ﴿وَقَالاَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الّذي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُومِنِينَ﴾ [النمل: 15]، وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الّذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: 111]، وقال أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فاطر: 34]، ﴿وءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: 10].

فهي كلمة كل شاكر، وعقب على ذلك كله القرطبي فقال: "الصحيح أن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان، والشكر ثناء على المشكور بما أولى من الإحسان وعلى هذا الحد قال علماؤنا: الحمد أعم من الشكر لأن الحمد يقع على الثناء وعلى التحميد، وعلى الشكر والجزاء بخصوص إنما يكون مكافأة لمن أولاك معروفا، فصار الحمد أعم في الآية لأنه يزيد على الشكر.

وقال شفيق بن إبراهيم في تفسيره الحمد للّه قال: "وهي على ثلاثة أوجه: أولها إذا أعطاك شيئا لتعرف من أعطاك، والثاني أن ترضى بما أعطاك والثالث مادامت قوته في جسدك ألا تعصيه، فهذه شرائط الحمد.

وأضاف القرطبي: أن اللّه سبحانه أثنى بالحمد على نفسه، وافتتح كتابه بحمده، فمعنى الحمد للّه رب العالمين، أي سبق الحمد مني لنفسي قبل أن يحمدني أحد من العالمين، وحمدي نفسي لنفس في الأزل لم يكن بعلة، وحمد الخلق مشوب بالعلل.

وقيل لما علم سبحانه عجز عباده عن حمده، حمد نفسه بنفسه لنفسه في الأزل، فاستفراغ طوق عباده هو محل العجز عن حمده، ألا ترى سيد المرسلين كيف أظهر العجز بقوله: لا أحصي ثناء عليك.

وقيل حمد نفسه في الأزل لما علم من كثرة نعمه على عباده وعجزهم عن القيام بواجب حمده، فحمد نفسه عنهم، لتكون النعمة أهنأ لديهم، حيث أسقط عنهم ثقل المنة.

والحمد للّه، تقرأ برفع الدال، ويكون معنى الآية في هذه الحالة، أنها تتضمن خبرا معناه أن الحمد من قارئ الآية، ومن جميع خلق اللّه، أي أنه يقرر حقيقة استحقاق اللّه للحمد عن كل ما يحمد له سواه سبحانه ومن جميع خلقه في حين انه إذا قرأ الآية بفتح الدال، كان معنى ذلك قوله: "حمدت اللّه حمدا" فكان الحمد بهذه المعنى من القارئ وحده.

وقال قوم إنما نقول الحمد للّه تعرضا لعفو اللّه ومغفرته وتعظيما له وتمجيدا، فهو خلاف معنى الخير وفيه معنى السؤال وفي الحديث: "من شغل بذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين".

وقال الطبري، على حد رواية القرطبي أيضا: الحمد للّه ثناء أثنى به على نفسه، وفي ضمنه أثر عباده أن يثنوا عليه، فكأنه قال: "قولوا الحمد للّه".

ويقول الطبري "معنى الحمد" الشكر خالصا للّه جل ثناؤه، دون سائر ما يعبد من دونه، ودون كل ما يراه من خلقه، بما أنعم على عباده، من النعم التي لا يحصيها العدد، ولا يحيط بعددها غيره أحد، في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وغذاهم به من نعيم العيش، من غير استحقاق منهم ذلك عليه، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود، في دار المقام من النعيم المقيم، قلوبنا الحمد على ذلك كله أولا وآخرًا.

وعن الحكم بن عمير إذ قلت الحمد للّه رب العالمين فقد شكرت اللّه في أمرك، قال وقد قيل: أن قول القائل: "الحمد للّه ثناء على اللّه بأسمائه وصفاته الحسنى، وقوله: "الشكر للّه ثناء بنعمه وآياديه، وعن كعب "من قال الحمد للّه فذلك ثناء على اللّه"، وعن الأسود بن سريع "ليس شيء أحب إليه من الحمد من اللّه تعالى، والملك أثنى على نعمته: الحمد للّه".

وقال أبو جعفر: "ولا تمانع بين أهل المعرفة باللّغة العربية من الحكم بالصحة لقول القائل: "الحمد للّه شكرا" فقد تبين إذا كان ذلك عند جميعهم صحيحا أن الحمد للّه قد ينطق به في موضع الشكر، وأن الشكر قد يوضع موضع الحمد، لأن ذلك لو لم يكن كذلك لما جاز أن يقال: الحمد له شكرا فيخرج من قول القائل: "الحمد للّه" مصدر الشكر، لأن الشكر لو لم يكن بمعنى الحمد كان خطأ أن يصدر من الحمد غير معناه وغير لفظه.

وقيل أن دخول الألف واللام في الحمد، معنى لا يؤديه قول القائل حمدا بإسقاط الألف واللام، وذلك أن دخولهما في الحمد منبئ عن أن معناه جميع المحامد والشكر الكامل للّه، ولو أسقطنا عنه لما دلّ إلا على أن حمد قائل ذلك للّه دون المحامد كلها، إذا كان معنى قول القائل: "حمدا للّه... أو حمد اللّه" أحمد اللّه حمدا، وليس التأويل في قول: "الحمد للّه رب العالمين".

تاليا سورة أم القرآن "أحمد اللّه" بل التأويل في ذلك من وصفنا من أن جميع المحامد للّه بألوهيته وإنعامه على خلقه بما انعم عليهم به من النعم التي لا خفاء لها في الدين والدنيا، والعاجل والآجل.

ولذلك المعنى تتابعت قراءة القراء وعلماء الأمة على رفع الحمد من "الحمد للّه رب العالمين" دون نصبها الذي يؤدي الدلالة على أن معنى تاليه كذلك أحمد اللّه حمدا، ولو قرأ قارئ ذلك بالنصب لكان عندي محيلا معناه، ومستحق العقوبة على قراءته إياه كذلك، إذا تعمد قراءته كذلك، وهو عالم بخطئه وفساده.

ثم قال ما معنى قوله" الحمد للّه"؟ أحمد اللّه نفسه جل ثناؤه فأثنى عليها ثم علمناه لنقول ذلك، كما قال وصف به نفسه؟ فإن كان ذلك كذلك فما وجه قوله تعالى ذكره "إياك نعبد وإياك نستعين؟ وهو عز ذكره معبود لا عابد؟ أم ذلك من قيل: جبريل أو محمد رسول اللّه ﷺ ؟ فقد بطل أن يكون ذلك للّه كلاما.

قيل بل ذلك كله كلام اللّه جل ثناؤه، ولكنه جل ذكره حمد نفسه وأثنى عليها بما هو أهل له، ثم علّم ذلك عباده وفرض عليهم تلاوته، اختبارا منه لهم وابتلاء فقال لهم قولوا: "الحمد للّه رب العالمين" وقولوا: "إيّاك نعبد وإياك نستعين" فقوله: "إياك نعبد" مما علمهم جل ذكره أن يقولوه ويدينوا له بمعناه، وذلك موصول بقوله: "الحمد للّه رب العالمين"، وكأنه قال: قولوا: هذا وهذا.

وقد أورد الشيخ محمد رشيد رضا، ما ذهب إليه شيخه محمد عبده: "من أن الحمد الثناء باللسان، وقيدوه بالجميل، لأنه كلمة ثناء تستعمل في المدح والذم معا، يقال أثنى عليه شرّا كما يقال أثنى عليه خيرا، ويقولون إن "ال" التي في الحمد هي للجنس في أي فرد من أفراده لا لاستغراق ولا للعهد المخصوص لأنه لا يصار إلى كل منهما في فهم الكلام إلا بدليل، وهو غير موجود في الآية، وهذه الجملة خبرية، ولكنها استعملت لإنشاء الحمد، فأما معنى الخبرية فهو إثبات أن الثناء الجميل في أي أنواعه تحقق، فهو ثابت له تعالى وراجع إليه، لأنه متصف بكل ما يحمده عليه الحامدون صفاته أجل الصفات وإحسانه عم الجميع الكائنات.

وأضاف الشيخ رشيد التعريف المشهور بين العلماء للحمد، أنه الثناء باللسان على الجميل الاختياري أي الفعل الجميل الصادر عن فاعله باختياره، أي سواء سدى هذا الجميل إلى الحامد أم لا، وأزيد عليهم أنه قد يحمد غير الفاعل المختار

تنزيلا له منزلة الفاعل في نفعه منه: إنما يحمد السوق من ربح، وهذا هو المتبادر من استعمال اللغة، وحذف بعضهم قيد الاختيار ليدخل في الحمد الثناء على صفات الكمال، ولذلك حذف بعضهم الجميل الاختياري بقوله سواء كان من الفضائل أو الصفات الكمالية لصاحبها أم الأفضال، وهي ما يتعدى أثره من الفضل إلى غير صاحب الفضل والظاهر أن الحمد على الفضائل وصفات الكمال إنما يكون باعتباره يترتب عليها من الأفعال الاختيارية، وما عدا هذا من الثناء يسميه العرب مدحا يقال: مدح الرياح، ومدح المال، ومدح الجمال، ولا يطلق الحمد على مثل هذه الأشياء وقيل هما مترادفان.

وقال النسفي: "الحمد هو الوصف الجميل على جهة التفضيل، وهو رفع بالابتداء وأصله النصب، وقد قرئ بإضمار فعله على أنه من المصادر المنصوبة بأفعال مضمره في معنى الإخبار كقولهم: "شكرا وكفرا" والعدول عن النصب إلى الرفع للدلالة على ثبات المعنى واستقراره والخبر للّه واللام متعلق بمحذوف أي الواجب أو ثابت، وقيل الحمد والمدح أخوان، وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها، تقول: حمدت الرجل على إنعامه، وحمدته على شجاعته وحسبه.

3 – الفرق بين الحمد والشكر:

وأما الشكر فعلى النعمة خاصة، وهو بالقلب واللسان وحده، وهو احدى شعب الشكر ومنه الحديث: "الحمد رأس الشكر، ما شكر اللّه عبدٌ لم يحمده"، وجعله رأس الشكر لأن ذكر النعمة باللسان أشيع لها من الاعتقاد بالجوارح لخفاء عمل القلب، وما في عمل الجوارح من الاحتمال، ونقيض المدح الذم، ونقيض الشكر الكفران، وقيل المدح بناء على ما هو له من أوصاف الكمال كونه باقيا قادرا عالما أبديا أزليا، والشكر ثناء على ما هو منه من أوصاف الحمد بشملها، والألف واللام فيه للاستغراق.

وفي تفسير المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية الحمد للّه "الثناء الجميل بكل أنواعه، وعلى كل حال للّه وحده، ونثني عليه الثناء كله لأنه منشئ المخلوقات والقائم عليها".

وفي التفسير الوسيط الحمد "هو الثناء على الجميل الذي يصدر عن المحمود باختباره من نعمة أو غيرها، أما الشكر فهو مقابلة النعمة بالثناء على صاحبها بالقول، أو مقابلة نعمته بعمل يدل على الاعتراف بها كآداب الجوارح، أو الشعور القلبي بفضل صاحبها، لذلك يقول الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة *** يدي ولساني والضمير المحجبا!

وفي تفسير حمزة وعلوان وبرانق: "الثناء والشكر للّه وحده، الذي يدبر أمر المخلوقات ويربي عالم الإنسان والحيوان والنبات، في الدنيا بالحياة وبالغذاء والتناسل، فيمنحها من نعمة، ما يحفظ بقاءها إحساسا منه ورحمة، وهي وحده صاحب السلطان والقوة والتدبير يوم القيامة، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ للّه، يوم يحاسب كل إنسان على عمله، إن خيرا فخير، وإن شرًّا فشرٌّ".

فالمفسرون جميعا قديمهم ومحدثهم المسهب منهم والموجز، شغلوا بالجوانب اللغوية من الآية،وتفسير لفظ الحمد، وإيراد معانيه المختلفة والمقارنة بينه وبين لفظ الشكر، والتساؤل أيهما أوسع نطاقا وأشمل مدلولا؟ وأيهما يصدر عن جوارح الإنسان جميعا؟ وأيهما يصدر عن اللسان؟ وبالتالي أيهما أعلى مرتبة وأعظم مكانا؟ ثم التساؤل عن جملة (الحمد للّه) خبرية أم انشائية؟ واللاّم في لفظ الجلالة الاستغراق أم ليست له؟ وقد غاب في خضم هذه البحوث وظيفة هذه الآية، ودورها في حياة المسلم الذي يخاطب بها، ويدعي إلى شامل معانيها واستخراج ما يكلف آداؤه بهذا التأمل ومقدارها يفيده منها.

وأول ما يجب أن يسأل نفسه المسلم قارئ هذه الآية، وهو يتلوها: لماذا يطلب منا اللّه أن نثني عليه، ونحمده، باللسان وحده، أو باللسان والجوارح، سواء كان الثناء على صفاته أو على نعمائه وآلائه أليس اللّه هو الخلاق الذي كانت هذه الأكوان التي لا ندري من أمرها إلا ما يشب النقير والقطمير قيمة ووزنا بعض ما صنعه وشيئا من آثار قدرته؟ فهل هو محتاج إلى حمد وشكر من جنس من مخلوقاته هو الإنسان الذي وصفه اللّه نفسه بأنه كان ضعيفا ولا عزم له، وأنه هلوع وجزوع ومنوع؟

إن الفاتحة هي أم الكتاب، وهي فاتحة وقد خصها القرآن الكريم بذكر خاص إذ قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: 87]، ولقد استفتحت هذه الفاتحة بـــ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: 01]، وجرت السنة على أن يبدأ بها خطيب يوم الجمعة وكل صلاة جامعة خطبته، وجرى المسلمون على أن يبدوا بها أول كلام لهم، فما الحكمة في هذا كله؟

الحكمة فيه، على ما نرى وفقنا اللّه إلى الصواب أن هذين اللفظين هما جماع الدين كلّه، وخلاصة الحكمة الإنسانية بأسرها، وأنهما يحويان من المعاني ما يقود الناس إلى العلم ما وسع الإنسان أن يعلم، وإلى السعادة كأعظم ما تكون السعادة المادية والروحية وتحقق لهم من القوة كأشمل ما تكون قوة النفس والعقل والبدن؟

ولنر كيف اجتمع هذا كله في حروف ثمانية؟ ولكن لن يتيسر لنا أن نستظهر هذه الحقيقة الكلية إلا بحقائق تمهد لها.

وأولى هذه الحقائق أن الدين، في مفهوم الإسلام هو العلم والنور، وان الكفر والشرك هما الجهل والظلام.

وقد توارت آيات القرآن الكريم على بيان أن الدين هو العلم والمعرفة، وأنه ضد الجهل والعمى والتخبط في الدياجير.

ولم يبدأ الوحي بلفظ ﴿اقرأ﴾ عبثا، فقد استمرت الحركة الإسلامية منذ البعث حتى النصر الذي كتبه اللّه للإسلام، ثم بعد ذلك حتى اتسعت حضارة المسلمين، تنويرا وتعليما وهداية، ودرسا وبحثا وجدلا وسؤالا وجوابا وشكا ويقينا.

فالدين جاء ليعلم الناس نواميس هذا الكون وليلفتهم إلى مظاهره، وينبه أذهانهم إلى أحكامه، والسبيل الأوحد لفتح أبواب هذا العلم هو تقرير الحقيقة الأساسية أن لهذا العالم خالقا واحدا، وأن جميع ما نراه ونسمعه ونحسه، ونشمه ونتذوقه من عمله، بل حتى ما لا نفهمه، ونعيه، وما لا نحيط به، ونقف عليه من الظواهر والأمور، يرد إلى مسبب الأسباب وخالق الأكوان ومدبر العالمين، وأنه أكبر من أن تعيه عقولنا وان تدركه بأبصارنا، فإذا عجزنا عن أن نفهم هذه الحقيقة، استحال علينا العلم سواء كان فلكا أو رياضة أو طبيعة أو كمياء أو طبا كما استحال علينا أن نستنبط العلوم التي نسميها الآن العلوم الإنسانية من تاريخ واجتماع وقانونا ذلك لأن الشرك باللّه يفسد كل العلم إذ ينسب الظواهر والأطوار التي يراها لغير سببها، فيزعم أن الهه المصنوع من ذهب أو فضة أو من خشب أو من عجوة، هو الذي يسقط الأمطار، ويصرف السحاب، أو يطلق الصواعق والرعود،أو يجلب النصر، أو يهزم الأعداء كما يبعد نحس الطالع، ويشفي الأدواء،"فلا إله إلا اللّه"، ليست حقيقة روحية تعبدية تلزم للصلاة الصلاة الصحيحة، وتقوم عليها العبادة السليمة إنما هي حقيقة علمية بل هي أم الحقائق العلمية، لأنها أكثر ثبوتا، وأعظم صحة من أن واحدا زائدا واحدا يساويان اثنين، أو من قانون الجادبية، لأن الإنسان الذي يعتقد أن التوسل إلى وثن، أو تقديم القرابين إليه استجلا بالرضاه، أو نفيا لسخطه، يمكن أن يبدل الجفاف ماء والجدب نماء، لا أمل في أن يتعلم شيئا نافعا أو يعلم هو الآخرين شيئا نافعا أو

يعلم هو الآخرين شيئا مجديا، لأنه لو علم شيئا صحيحا من حيث أسبابه ونتائجه، لا يلبث أن يخلطه بوهم من أوهام عقيدته فيضيع علمه الصحيح الذي يعينه على إقامة حياته ثم تجميلها، وقد يقول قائل كيف يلزم الإعتقاد والإيمان بأن "لا إله إلا اللّه" ليتوفر علم صحيح ولتقوم حضارة عظيمة، وقد كان أهل العصور القديمة وثنيين يؤمنون بعقيدة تقوم على تعدد الآلهة ومع ذلك شادوا المباني الضخمة وشقوا الطرق الواسعة، واستنبطوا كثيرا من حقائق العلم وطبقوها في الزراعة والصناعة، والطب والفلك؟ والرد على ذلك أن عقيدة التوحيد، كما انطوت على بذرة الدين السماوي وبمقدار ما اجتمع لهؤلاء من هذه العقيدة التي تؤمن بوجود اله أعظم، خالق الناس والسماوات والأرض، استطاعوا أن يتقدموا وإنك قادر أن تتبين آثار هذه العقيدة عند المشركين من عرب مكة وعرب الجزيرة كلها فقد كانوا يسلمون بوجود الإله الخالق، ولكنهم كانوا يشركون معه آلهة دونه، والقرآن نفسه شاهد على ذلك، من ذلك: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتَ وَالأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: 25]، ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الذينَ لاَ يُؤمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ [الزمر: 45]، ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ ءَالِهَةً اخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ، قُلِ اِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الأنعام: 19]، ولهذا اسموا بالمشركين لأنهم يشركون مع اللّه آلهة سواه، وينتحلون لهذا الشرك أسبابا فتارة يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: 03] وتارة يقولون: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: 70]، فعبادهم لغير اللّه سببها حينا أن يتخذوا من آلهتهم وسيلة إلى اللّه لأن آلهتهم أقرب إلى أفهامهم، إذ يروها بالعين ويمسكون بها باليد، ولأن هذه الآلهة هي آلهة الأجداد والآباء، وهم يحبّون أن يكونوا على آثار آبائهم ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يعلمون.

من كل هذه الآيات يبين أن المشركين لم يكونوا يرفضون عقيدة الإله الأعظم، ولكن كانوا يرفضون وحدانيته، وهذه عاهة ملازمة العقل البشري، في أطواره الأولى، وهو لا يقوى على التخلص منها، إلا بعد جهد ورياضة، وهذا ما جاء الإسلام ليقود الناس إليه، وليحملهم عليه، ومن وسائلها الناجحة لهذه الغاية الكبيرة فلسفة ﴿الحمد لله﴾ التي نحن بصدد بسطها.

فالعقل البشري يوتر التجسيد على التجريد، ويقدم القريب على البعيد، ويشغل بالمصلحة العاجلة، عن الفائدة الآجلة، ومن هنا الإله الخاص، أقرب إليه من الإله الأعلى، وكان الولي أعظم أثرا من تعاليم رب العالمين وكان الدعاء إلى الإله في شأن منصب يرتجيه أو ربح يؤمل فيه أو امرأة يطمع فيها، أو كربة خاصة يشكو منها، أجرى على لسانه وأشغل لقلبه من الدعاء الذي تكون الغاية منه طلب التوفيق والسداد، أو الهداية إلى الخير، والنجاة من الشر.

ولا يزال العامة وبعض الخاصة، في الشرق والغرب، وفي القديم والحديث، سواء كانوا من أهل الأديان السماوية وأديان الحكماء والفلاسفة، يترددون على أضرحة الأولياء ويحملون التمائم والتعاويذ والأحجية، ولا يذكرون الله إلا قليلا أو لا يذكرونه إلا مقرونا بولي من أوليائهم، وكأن الولي هو الأصيل والله والعباد به هو وسيلة أو شفاعة.

ولذلك كانت فلسفة الشرك هي فلسفة الإنسان في أدواره الأولى، والتي بقيت على ما سبق من القول رواسبا منها في النفس الإنسانية إلى اليوم.

ومن هنا كان الإنسان يوفق في بعض نشاطه وتفكيره وإنتاجه المادي والأدبي، لأن فيه آثارا من الإيمان بالله المجرد السّامي الذي يهدي إلى محبة الناس والإخاء بينهم، والإيمان بالعدل والصدق والمساواة، ولكن هذه اللمحات الربانية لا تلبث أن تحجبها سحب الشرك، فتأفل شمس الحضارة الوثنية، ويسودها الطغيان والاستبداد وشهرة الملوك والقادة، وخوف الفقراء

والصغار، وتخبط الإنسانية كلها في كل ما تقول وتعمل، فهي لا تهتدي إلى الحقيقة العلمية، ولا إلى الحقيقة الروحية، وإن اقتربت منها خطوة، بعدت عنها خطوات، وبقيت هكذا حتى جاء الإسلام ليضع للشرك حدا حاسما وقاطعا مجردا ملك الله من كل تجسيد وكل ارتباط بالزمان والمكان، والشكل والصورة، والحجم والوزن، ورد كل الأسباب إليه، وعودة كل الأمور له: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ [آل عمران: 109].

ومنذ ذلك التاريخ، تاريخ بدأ الحركة الإسلامية بدأت الحركة العلمية وتحررت العقول والنفوس في الشرق، فانطلق الفلاسفة والمفكرون والمشرعون والمصلحون، يقولون كل شيء في كل شيء، وتعددت المدارس، وتنوعت المذاهب، وتأمل أهل العقل في السماء والأرض والمعادن والعناصر، وغزت هذه الروح أوربا غزوا هزها من الأعماق، وأخرجها من الظلمات دفعة واحدة، فغشيت لها عيون، وكرهتها أبصار،فكان ما عرفته من ظلمات ديوان التفتيش ومطاردة المفكرين والأحرار، حتى في ميدان الفلك والطبيعة، وما قصص جليليو وكوبرنيكس وداروين إلا أمثلة مشهورة من سيئات الأحوال المجهولة التي أخرت العلم كثيرا، وما جنته الإنسانية اليوم من ثمار العلم الباهرة، من بدأ استعمال البخار، حتى الوصول إلى القمر، ومن خطوات الرياضة البحتة والتطبيقية، إلى نظرية النسبية، ليس سوى الأثر المباشر لحركة تحرير العقل الإنساني على يد الإسلام، الذي رفع عن الإنسان اصر الوثنية والشرك، الذي حال بينه وبين معرفة أصول الأسباب، وتبيين علة العلل.

ولكن العقل الإنساني جهاز حديث، وتحرره أحدث منه كثيرا بطبيعة الحال، ولذلك لا يزال معرضا للغفوة والكبوة ميالا، إلى العودة إلى ما ألفه واعتاده، وهو ما عبر عنه القرآن: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [لقمان: 21]، وهو في حاجة إلى تذكير وتنبيه وإنعاش، وإلى تسديد وتقويم وهداية، ومن هنا كانت حكمة: ﴿الحمد لله﴾ [الفاتحة: 01].

فلا إله إلا اللّه، هي الأصل والغاية، بها آفاق العقل الإنساني من غفوته، وخرج من الظلام الكثيف، إلى نور الحرية الكاملة غير المحدودة، فلا سلطان على الإنسان إلا للعقل، إذ سقطت بهذه العبارة الصغيرة سلطة الملوك والقياصرة، والأمراء والأكاسرة، كما سقطت سلطة الكهان والأحبار، ولم يعد الإنسان خاضعا إلا لما يقنعه، ولا تابعا إلا لما يؤمن به ويهتدي إليه، ولم يعد هناك حرم لا يجوس العقل الإنساني خلاله، فهو يقرأ بنفسه لنفسه، ويسأل، ويناقش ويجادل ويسفه ويؤيد، ويراجع ما قاله، ويعدل عنه، ويضيف إليه، ويحل محله سواه، ويبدأ من جديد، فما دام العلم غايته، والحقيقة ضالته والمصلحة العامة حافزة، فكل ما به حرام على الناس، أي على المسلمين: دمه وماله وعرضه فما دام يؤمن باللّه، أي ما دام عقله قد تحرر وما دام أنه لم يسفك دما، ولم يهتك عرضا، ولم يسرق مالا، فلا يحق لأحد أن يضع يده عليه، ولا أن يمسه بسوء فإن اعتدى عليه معتد فكل المسلمين مطالبون بالدفاع عنه، وإلا كانوا آثمين، يحاسبون عن تخليهم عن القيام بالتبعة، وكأنهم كفروا ﴿إِنَّ الذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ، قَالُواْ أَلَمْ تَكُنْ اَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلاَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 97].

فالحمد للّه جاءت أثرا لعقيدة لا إله إلا اللّه لا لتحمل الإنسان على الإقرار بعبودية للّه وحسب، والإذعان لإرادته وأحكامه فقط، ولو وقف المسلم بالحمد للّه عند حد هذا الإقرار المادي، ولم يكن لها من الآثار على نفسه وعقله ما رسم اللّه لها، وما قصده سبحانه منها، لكان إيمانه لفظيا لم يخالط القلب، وكان من قبيل إيمان الأعراب: ﴿قَالَتْ الاَعْرَابُ ءَامَنَا، قُل لَّمْ تُومِنُواْ وَلَكِن قُولُواْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الايمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: 14].

فالحمد للّه هي حركة في ثلاثة اتجاهات: هي حركة عقلية أولا، ثم حركة نفسية ثانيا، ثم حركة وجدانية ثالثا.

وقبل أن نفهم مدلول الحركة العقلية لعقيدة: الحمد للّه الإسلامية يجب أن نعرف ما اندس في بعض العقائد السماوية من تراث العقائد الوثنية، فإله الوثنى هو صورة من شيخ القبيلة ومن الملك والسلطان، فهو قوي، ولكنه باطش مخيف، لا يخيف أعداءه فحسب بل أتباعه معا.

وهو يقيم لسلطانه على قلوب هؤلاء الأتباع بما يملك من قدرة على الإبادة والإذلال، وطاقة غضبه تزلزل الصروح من قواعدها، وتهز أقوى القلوب من مواضعها، وهو شره لا يرتوي من سفك الدماء، ولا يشبع مما يقدم إليه من فروض الخضوع والطاعة، ولا من آيات الخوف من شرّه، ولذلك تقدم له القرابين بشرية وحيوانية إلى غير حد، وقد يكون من هذه القرابين الأطفال، كإله "مولوخ" إله العبرانيين أو النساء والرجال والفتيات، وهو غيور، لا يكاد يقبل أن يوجد إلى جواره إله سواه، فإذا تمت له السيطرة على عباده وعدهم بالنصر، ومنحهم الغلبة على الأعداء مهما ظلموا، بل إنه يرسم لهم سبيل الكيد للأعداء، ويدعوهم إلى الغدر والسطو والنهب والحرق، ويزين لهم الجرائم، ويباركها من أجلهم، وقد ورد في التوراة التي بين أيدي الناس الآن شيء غير قليل من هذه الصورة، وقد بدأ أول العقد بين العبرانيين وإلههم على الوجه الآتي:

جاء في الاصحاح السادس من سفر الخروج:

"أنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين، وأنقذكم من عبوديتهم بذراع ممدودة، وبأحكام عظيمة وأتخذكم لي شعبا، وأكون لكم إلها".

وتتوالى نصوص العقد، فهو يحرض اليهود على سرقة المصريين حين يخرجون من مصر، فيقول في الإصحاح الثالث:

"فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين، بل تطلب كل امرأة من جارتها، ومن نزيلة بيتها أمتعة فضية وذهبا وثيابا تضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين".

وإلى جانب التحريض على السرقة نرى في سفر التثنية التحريض على الحرق والتدمير: "حين تقرب من مدينة لكي تحاربها، استدعها إلى الصلح، فإن أجابت إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها، يكون لك بالتسخير، ويستعبد لك، وإن لم تسالمك وعملت معك حربا فحاصرها، وإذ دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها، بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم، وكل ما في المدينة وكل غنيمتها فتضمها لنفسك، وتأكل كل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك".

"واحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها، إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد اجعلوها في خزانة الرب".

ولهذا فإنه من الجائز أن يقع بين هذا الرب وبين النبي موسى حوار يؤنب فيه النبي ربه،فيقول مثلا في الاصحاح الثاني والثلاثين من سفر الخروج:

"أرجع عن غضبك، واندم على الشر بشعبك، فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه".

فجاء الإسلام لينسخ هذه السورة، وليمحو كل آثارها في نفوس الناس فإله المسلمين لا يحابيهم ولا يعدهم بالنصر، ولا يمنيهم بالغلبة لمجرد كونهم مسلمين، فقد أقام الإسلام حكم العلم، وقرّر أن للنصر قوانينه وأحكامه، فمن يلزمها ويتزل على مقتضاها يتحقق له نصر اللّه، وأوله هذه القواعد أن يكون القتال من أجل اللّه، وفي سبيل اللّه: أو من أجل الحق، ولإقامة العدل، ولنصرة الضعيف، ﴿**الَّذِينَ إِنْ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلاَةَ، وَءَاتَوُاْ الزَّكَاةَ، وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْ عَنِ الْمُنْكَرِ**﴾ [الحج: 41]،

فمعنى آية: ﴿إِنْ تَنْصُرُواْ اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتَ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 07]، هو إقامة الإسلام، أي إقامة العدل والحق، فليس يكفي أن يكون عدو المسلمين من غير المسلمين، أو أن يكون مشركا، ليضمن المسلمون الفوز عليه، إذ لا بد أن يكونوا أهلا للنصر في ذاهم من التقوى والصلاح، والقوة والإتحاد، والصبر في الشدة، والعفو عند المقدرة والسهر في الليل، واليقظة في النهار، وإعداد أسباب النجاح والتماس وسائله.

وبعد فإله المسلمين هو إله كل الناس، المشرك والكافر والمؤمن والصالح، الأبيض والأسود.

فإذا اتضحت كل هذه الأحكام، أمكن أن نفهم كيف أن الحمد للّه تستدعي حركة عقلية من قائلها، فالمسلم يعلم أن لهذا الكون سننا، أي قوانين تضبطه، وهي سنن ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، ﴿فَلَنْ تَجِدْ لِسُنَتِ اللَّهِ تبديلا [فاطر: 43]، ﴿وَلَنْ تَجِدْ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ [فاطر: 43]، وإننا مطالبون بأن نتأمل آثارها في الكائنات، وفي الأحياء وفي أنفسنا، وفيما يطرأ من الأحداث وما يجد من الأمور لنكون قادرين على أن ننتفع بما سخره اللّه لنا من الشّمس والقمر، والليل والنهار، والجبال والبحار، والأنعام والأزهار ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ... الآية﴾ [غافر: 82].

فإذا حل بالإنسان شيء مكروه أو مرجو وقلنا الحمد للّه، فمعنى ذلك أننا فكرنا في هذا الذي أصابنا ولم ندعه يمر بنا بل عرفنا أنه وقع تطبيقا للقاعدة الكلّية الكبرى، أي أنه جاء طبقا لقانون من قوانين هذا الكون المادية أو الروحية، وان علينا أن نعرف أسبابه ومقدماته، لنستزيد من الخير إن كان خيرا، ولندفع الشر إن كان شرا.

ولكن ما هو الدليل على صحة هذا التفسير الدليل على هذا أنه ما من شيء يطلبه اللّه من عباده أو يفرضه عليهم حتى العبادات والكفّارات، إلا والحكمة من

تقريره خير العباد فالصلاة والصوم والزكاة والحج كلها عبادات الغاية منها إصلاح نفوس الناس، ومنحهم زيادة من القوة، ولطف المعاملة، وصدق العهد، واحتمال الشدائد والسعي لخير الناس والإيمان بالحق والعدل، وهم بهذا يكسبون كسبا شخصيا، وماديا، إلى جانب المنافع العامة والفضل الروحي.

ويستفاد هذا من قوله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ .لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج: 37]، وما تقرره هذه الآية هو مبدأ عام، لا ينصب على الأضاحي التي يتقرب بها العباد إلى ربهم، بل يشمل كل قربى إلى الله ولو كانت عبادة مسنونة ومفروضة على الجميع المكلفين، فالحمد لله هي دعوة لتفكير العبد فيما يجري في هذه الدنيا له ولغيره، ليكشف ما ينطوي عليه، فإذا تأمل فسيعرف ويقوم الحمد أو الشكر، مقام المعرفة، فالشاكر والعالم والشكور والعليم، كأنهما مترادفان وإليك البيان.

في سورة المائدة جاء قول الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: 89]، وجاء في سورة الأعراف قوله عزّ وجل: ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 58]، وفي سورة لقمان: ﴿لِيُرِيَكُمْ مِّنَ ايَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: 31]، وفي البقرة: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 56]، فالشكر هنا يأتي دائما بعد موضع تكشف فيه الحقائق للناس، فالله يبين للناس آياته ليريهم إياها ويتبع هذا كله بما معناه، أن النتيجة لهذا العلم، أن تشكروا أي أن يعلموا العلم الذي ينطوي على الحمد لله والثناء عليه والشكر له، لأن غاية العبادة أن يعرف الناس حقيقة ربّهم، وأن يزدادوا علما بأحكامه، فحينما يصلون إلى مرتبة العلم يشكرون، أو حينما يصلون إلى مرتبة الشكر يعلمون، ولعل هذا المعنى يزداد وضوحا في قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿إِنَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: 05]

وقوله في سورة لقمان: ﴿لِيُرِيَكُمْ مِّنْ ءَايَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: 31]، ويصف اللّه ذاته بقوله: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 158] واقتران العلم بالشكر يدل على أنها بمعنى واحد، أو أن أحدهما يؤدي إلى الآخر، أو يقترن به أو يقوم مقامه، فلا يشكر أفضال اللّه ونعماءه وآلاءه إلا من عرفها، ولا يعرفها إلا من شكرها، ويزيد ذلك المعنى وضوحا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: 40]، ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 07]، فإن الشكر هو بمعنى العلم، فإنكم لا تعلمون فضلا، فالخير عائد عليكم من هذا العلم، وكلما شكرتم ازدادكم فضلا، لأنكم تزدادون علما، واللّه تعالى لا يحتاج إلى شكركم وإنما أنتم المحتاجون إلى هذا العلم، وقد يمنحكم اللّه أفضالا، ويبسط لكم في الرزق والصحة، لتروا هل تعلمون قيمة ما أعطاكم فتحسنوا الإنتفاع به والمحافظة عليه فتزدادوا خيرا: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: 40]، فالحمد للّه هو عملية عقلية، لأنه لا يأتي إلا لمن تأمل في الكون، وشغل عقله بأسراره، وتحمل النصب والتعب، ليقف على أحكامه، وهو كلما بحث وتأمل زاد الكون أمامه اتساعا وزاد في عينيه عظمة وضخامة، فإذابه وحده محمول على الشعور بعظمة خالق هذا الكون، فيحمله شعوره هذا بدوره إلى التعبير عنه بقلبه ولسانه، ولا يزال في حلقة مفرغة يتأمل الكون، ويكشف أسراره، فيزداد شغفا بالبحث، والبحث يزيده بالكون وخالقه إعجابا وتقديسا، ويزداد رغبة في مواصلة النظر في قوانين الدنيا، فيزداد علما، وكلما علم زاد تقديره وحبه لهذا النظام الدقيق الذي يعلو على كل عقل وفهم، والذي يعلن للعالم الشكر عظمة اللّه غير المتناهية وقدرته غير المحدودة، فيزداد هو قوة إذ يزداد علما أو إيمانا أو شكرا كيفما شئت.

فالحمد للّه هي حافز متجدد لعقل الإنسان يدفعه إلى مواصلة التفكير، وإلى الإصرار على النظر، وعلى استحثاث الخطى في استكناه حقائق العالم الذي نعيش فيه، والذي اخبرنا اللّه سبحانه وتعالى بأنه سخره لنا وانه لا سبيل إلى الانتفاع بهذا التسخير إلا بمحاولة تبيين المفاتيح المفضية إلى قواه المخبوءة وثرواته المكنوزة، وقد أجمل اللّه سبحانه وتعالى هذا كله بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28].

أما أن ﴿الحمد للّه﴾ هي حركة وجدانية، فنحن في حاجة إلى تشبيه لتوضيح المقصود من ذلك.

أفرأيت اثنين يقفان أمام منظر طبيعي جميل، أو لوحة فنية بارعة؟ ثم أرأيت أحدهما يمر بالمنظر أو اللوحة لا يحس بما فيهما من جمال، ولا يستمع بما يحويانه من تناسق تطيب له النفس، ومن لطف اللون أو الحركة، مما تصفوا له المشاعر، وتعلو به عن مشاغل الدنيا، وهمومها، في حين يقف الثاني مأخوذا بالجمال لا يكاد يستطيع الحركة، فينسى نفسه، وينسى من حوله وما حوله؟ فإذا أفاق بعد طول الوقفة، أحس بالراحة والسعادة والقوة معا، وكأن هذه الوقفة زاد مادي صرف ذهنه عما كان يشغله، وعلا بنفسه عن سائر الناس، فأصبح أكثر قدرة على مواصلة السعي في الحياة، وأعظم إحساسا بما فيه من حب للخير، وشعور بالجمال.

وهو لا يشكر، حتى يزداد في اللحظة سموا وقوة، وهو لا يزداد سموا وقوة حتى يزداد حبّا وتقديرا، فهي الدائرة المفرغة لا يدري أين طرفاها، تشكر فتزداد وتزداد فتشكر وهكذا لا تزداد قوة، إلا لتزداد قدرة على الشكر، لأنه عنوان القوة ومظهرها الخارجي، أما من يمر بلوحات الكون وأسراره، وهو أعمى لا يرى فهو كالحجر الأصم، لا يعي ولا يشعر، فتسد أمامه مصادر الإلهام ومتابع القوة، ولهذا فالكون يقول له: إني عنك لغني!

أما أن الحمد لله حركة نفسية، تأتي بعد التعقل والإحساس، فذلك لان الإنسان في هذا الكون الفسيح المترامي، حقير لا سند له، حائر لا هادي يأخذ بيده، يبدو له كل شيء غامضا، ويبدو له كل شيء في هذا العالم أقوى منه وأعظم، ثم عن الأحداث لا تقف لحظة فهي في استمرار متصل، وتطور دائب، وتغير لا ينتهي، وهذه الحركة تسبب للكائن الحي، من الآلام والأحزان والمخاوف ما لا قبل له به وحدة ما لم يعنه معين.

فإن هذه الحركة، تترع الإنسان من المكان الذي يألفه، والجماعة التي يعرفها، والحقائق التي يطمئن إليها، والوسائل التي يحسن استعمالها، وتلقى به في بحر متلاطم من الصور الجديدة، والعلاقات الطارئة، والأفكار المستحدثة وتطلب منه في الحال أن يتكيف مع هذا الجديد، وإلا ابتلعه الموج، وأطبقت عليه العوالم الجديدة فغيبته في جوفها.

ولذلك فإن الإنسان في حاجة مستمرة إلى أن يتبين حقائق ما يجد به من الأحداث وما يترل بساحته من النوازل، فإن لم يتبين أن هذا التغير المستمر ليس شرًا وليس خيرًا، وأن هذا العالم ليس عدوه وليس صديقه، وان مصدر القوة نفسه، وموطن الطاقة قلبه، ومنبع النور عقله، وان عليه أن يرى في كل ما يصيبه نصيبا من الخير، وبذرة للأمل، لا على سبيل العزاء والتسرية بل على سبيل استقراء الواقع الصادق، إذ أن ﴿مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ ﴿وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: 140]، حقائق علمية، وأنها تمنح العالمين بها، والواقعية، عليها قوى لا حد لها.

وليس ثمة عدو أقسى للنفس الإنسانية من اليأس، وليس ثمة داء أشد فتكا بها من الخوف، ولا يحمي الناس ويحصنهم من اليأس والخوف إلا فهم صحيح، وتطبيق سليم لحكمة ﴿الحمد لله﴾، فإنها تبدد الظلام،

وتقشع لها الظلمات، وتجدد لها الآمال، وتتسع بها الدنيا، فيزداد الإنسان قوة، ولا يزداد قوة إلا وقد ازداد قدرة على الإعجاب بما في هذه الإنسانية من طاقات لا يعرف الإنسان مداها، لأنه لا يفكر فيها، ولا يمد يده نحوها ليستخرجها.

فالحركة النفسية التي تبعثها ﴿الحمد للّه﴾ في الإنسان، أو تبعثه هو على إتيانها، ليس مجرد العزاء الذي يسبغه التسليم لقدر اللّه، والإذعان لحكمه باعتبار أن التمرد عليه معصية، ومعصيته لا نفع منها، ولا جدوى فيها، بل غنه حركة إجابية قوامها المبدأ القرآني، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 216]، ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: 35].

فالمسلم الذي يقول: ﴿الحمد للّه﴾ إذا أصابته مصيبة ﴿اَلذينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلَهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: 156]، يقولها ليستخرج منها قوة، لا لأنه يقارن نفسه بمن هم أشد منه ابتلاء فقط، بل لأنه يؤمن بأن في تضاعيف ما يبدو لنا شرا خيرا من نوع ما، وأن المؤمنين ينهاهم إيماهم على أن يفرحوا بما آتاهم اللّه، ولا يأسوا على ما فاهم، فالحياة ليست كسبا فقط، ولا فوزا دائما، وإنما هي قبض وبسط، وإدبار وإقبال، وإن الإنسان يحكم على الأمور بمقياسه الصغير، وينظر إليها بمنظاره القصير، في حين أن الواجب يقتضيه أن ينهض بواجباته، ويؤدي تكاليف حتى يبدو الخير، في جملة الحياة الإنسانية التي يحياها الفرد، ثم في جملة الحياة الإنسانية باعتبارها كلاً لا يتجزأ تطبيقا للمبدأ المقرّر في الآية الكريمة: ﴿مِنْ اَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَآءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ اَوْ فَسَادٍ فِي الاَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ اَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعا﴾ [المائدة: 32] ﴿فالحمد للّه﴾ إذن هي مذهب كامل من مذاهب الحياة والإيمان، يتفرع أساسا عن المذهب الشامل الكامل مذهب الإسلام القائم بدوره على أن لا إله إلا اللّه، وأنه

مذهب ذو ثلاث قوائم، قائمة عقلية، وقائمة وجدانية روحية وقائمة نفسية ذاتية، وان غاية المذاهب حماية العقل الإنساني والنفس الإنسانية في مواجهة ما يهب عليها من رياح الأضاليل والأكاذيب، ولو تسترت في شكل العلم، واختفت وراء اسمه، وتوفير الحيوية له كي يقف كلمة واحدة ساهرا لا يغفل، وحارسا لا ينتابه تعب ولا ميل للراحة، بل لا يدع العقل الإنساني يترلق إلى الغفوة أو يتوق إلى الراحة، إنها ناقوس يدعو إلى التأمل الدائم، والتفكير المتصل، إنها دعوة لتدبر آفاق الأرض والسموات وآفاق النفس الإنسانية التي تشبه الأرض والسماء، اتساعا، فالحمد للّه أولا وآخرا.

الفصل السادس

1 – لغة القرآن وأسلوبه:

إن لغة القرآن في مفرداتها وتراكيبها واصطلاحاتها وأساليبها وأمثالها وتشبيهاتها واستعاراتها ومجازاتها هي لغة البيئة النبوية وإنها مألوفة ومفهومة ألفة وفهما نامين من أهلها.

وليس الندى نعنيه بهذا تقرير قضية قد تكون بديهية في بعض الأذهان ولكن الذي نعنيه وجوب ملاحظة ذلك حين النظر في القرآن لأنه يساعد على فهم اصطلاحات لغة القرآن وأساليبها وأمثالها وتعبيراتها واستعاراتها ومجازاتها من جهة، وكون القرآن من جهة ثانية قد وجه أول ما وجه إلى أناس ألفوا لغته كل الألفة وفهموها كل الفهم ووصلوا في عقولهم ومعارفهم وبيانهم ودقة تعابيرهم وبلاغة أساليبهم وفصاحة السنتهم، والإستماع بتنوع أشكال الحياة المادية والمعاشية، والنفوذ إلى المفاهيم الأخلاقية والاجتماعية والدينية والعلمية والأدبية، إلى درجة غير يسيرة من الرقي متناسبة مع ما عبرت عنه وأشارت إليه وتضمنته لغة القرآن، مما هو نتيجة لازمة لكون القرآن إنما نزل بلسانهم، وكون لغة القوم هي أصدق مظهر لحياتهم المادية والعقلية والإجتماعية والدينية، ثم نعني بالإضافة إلى هذا أن ينتفي من ذهن الناظر في القرآن المعنى الذي حلا لبعضهم أن ينوه به، وهو انطواء بعض حروف القرآن وكلماته بل وبعض جمله وتعابيره وصور سبكه ونظمه على أسرار والغاز ومعميات وكذلك المعنى الذي قرره بعضهم من علو طبقة اللغة القرآنية عن أفهام سامعيها اطلاقا دون استثناء، والمعنى الذي قرّره بعضهم من أن لغة القرآن قد احتوت أو قصد أن تحتوي جميع لهجات ولغات العرب القديمة والحديثة مع لغات الأمم الأخرى.

ففي الإتقان للسيوطي فصول عديدة تشير إلى هذه المعاني ونذكر خاصة منها الفصل السابع والثلاثين كما أن كثيرا من الكتب الموضوعة عن القرآن وتفسيره قد احتوى تقرير هذه المعاني أيضا وفي الأقوال الواردة في تلك الفصول وهذه الكتب المروية أو الصادرة عن علماء قديمين كثير من التكلف والتزيد والتجوز والتخمين والتورط إن لم نقل التخريف!

ولقد جاء فيما جاء في فصول الإتقان للحافظ السيوطي، نقلا عن كتاب الإرشاد للواسطي في صدد تعدد اللغات التي احتواها القرآن، أن في القرآن خمسين لغة، وهي لغات قريش وهذيل وكنانة وخثعم والخزرج وأشعر ونمير وقيس وعيلان وجرهم واليمن وأزد شنؤه وكِنْدَة وتميم وحمير ومدين ولخم وسعد العشيرة وحضر موت وسدوس والعمالقة وأنمار وغسان ومذحج وخزاعة وغطفان وسبأ وعمان وبني حنيفة وتغلب وطي وعامر بن صعصعة والأوس ومزينة وثقيف وجذام وبلي وعذره وهوازن والنمر واليمامة، ومن غير العربية الفارسية والرومية والنبطية والحبشية والبربرية والسريانية والعبرانية والقبطية...

ولو عرف القائل قبائل عربية وأسماء غير عربية أخرى غير الذي ذكره لأوردها أيضا...

وزاد غيره تفريعا فقال: إن فيه من لغة بل لغات الطائف وثقيف وهمدان ونصر بن معاوية وعك، وليس هذا كل ما قيل وإنما هو أوسع ما قيل فإن في فصول الإتقان أقوال كثيرة في هذا الباب، وكلام القائلين ليس هو من قبيل تقرير ما قد يكون معقولا وصحيحا من أن لغة القرآن التي هي لغة قريش متطورة مع الزمن عن لغات العرب قبل نزوله، ومن أن في القرآن ألفاظا معربة عن اللغات الأجنبية أعلاما وغير أعلام دخلت على اللغة العربية القرشية وجرت مجراها وصارت جزءا منها قبل نزوله كذلك، بل يقصد تقرير أن ذلك التعدد واقعي وأنه إنما كان:

أولا: بسبب أن القرآن حوى علوم الأولين والآخرين ونبأ كل شيء فلا بد من أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن لتتم إحاطته بكل شيء، فاختير له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالا.

وثانيا: بسبب أنه امتاز عن غيره من سائر الكتب المنزلة فنزلت هذه بلغة القوم الذين أنزلت عليهم و لم تدخل فيه لغة من لغات غيرهم في حين أن القرآن احتوى جميع لغات العرب والعجم.

وثالثا: بسبب أن النبي محمد عليه الصلاة والسلام مرسل إلى كل أمة وقوم وقد قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: 04]، فلزم أن يكون في الكتاب المنزل عليه شيء من لسان كل قوم وإن كان أصله بلغته هو.

وجميع هذه المعاني لا تصح في حال، فمن ناحية علو طبقة القرآن عن أسماع الناس وأفهامهم أو انطواء حروفه، وكلماته على أسرار والغاز ومعميات فإن في القرآن نصوصا حاسمة تنفي ذلك حيث تنص على أنه أنزل بلسان مبين أي واضح مفهوم وأن آياته قد فصلت تفصيلا، وأنه انزل ليتدبره السامعون ويعقلوه ويفهموه ويحلون به ما يختلفون فيه كما أنه كان موجها إلى كل طبقة من أهل بيئة النبي عليه الصلاة والسلام يحكي كلامهم وأسئلتهم ويرد عليها مجيبا أو منددا أو مكذبا أو ملزما أو واعضا أو مشرعا أو في هذا ما يتنافى كذلك مع تلك المعاني وهذا فضلا عن أنها غير متسقة مع مهمة النبي المكلف بمخاطبة مختلف الطبقات والمأمور بتبليغ ما انزل إليه من ربه لهم والذي كان يتلوه على الناس كافة من مختلف الفيئات في جميع ظروف سيرته الشريفة في عهديها المكي والمدني وأنها غير متسقة مع كون القرآن هدى للناس كافة يؤمرون باتباع ما انزل فيه وتدبر آياته والتروي في أحكامه ومحتوياته، ويقال لهم فيه أنه مرجعهم في مختلف شؤونهم، ومنه يستمدون

تشريعهم وأخلاقهم ونذرهم وبشائرهم وحلول مشكلاتهم الخ... ومن ناحية احتواء القرآن مختلف لهجات ولغات الأمم عربها وعجمها وقديمها وحديثها على المقصد الذي شرحه القائلون فإنه لا يتسق في حال مع نصوص القرآن المطلقة والمتعددة بأنه أنزل بلسان عربي وجعل لسانا عربيا وأنه أنزل بلسان النبي العربي القرشي ولا مع نص الحديث البخاري في صدد نسخ المصاحف في عهد عثمان الذي احتوى تقريرا صحيحا بأنه انزل بلغة قريش.

ومن هذا الباب ما قيل حتى أصبح مستفيضا وحجة خطابية حاضرة من أن اللّه كما أرسل موسى عليه السلام في ظرف ارتقى فيه السحر وشاع بمعجزة تشبه السحر وليست سحرا فغلب الساحرين وأرسل عيسى في ظرف ارتقى فيه الطب فأتى بما يعجز الطب والأطباء فإنه أرسل محمدا بالقرآن فائقا على بلاغة البلغاء في ظرف كانت سوق الفصاحة فيه رائجة وبلاغة الكلام فيه قد وصلت إلى أعلى الذرى نظما ونثرا فقصر عنه البلغاء والفصحاء وكان فيه معجزته فهذا القول مع ما في ارتقاء السحر وشيوعه والطب إلى أعلى الذرى في عهدي موسى وعيسى من محل نظر وتوقف يعني أن القرأن قد قصد به أن يكون معجزا في فصاحته وبلاغته اللغوية والنظمية والفنية كأنما هو معلقة من معلقات الشعر الخالدة، أو قد قصد به أن يكون أعلى من مستوى أفهام الناس وبلاغة بلغائهم، وهذا لا يصح في اعتقادنا على ما ذكرناه آنفا، والقرآن يقرر أنه: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ لِّتُنْذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: 69 - 70]، ﴿هَذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُواْ بِهِ﴾ [إبراهيم: 52]، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُومِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا وَأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُومِنُونَ بِالاَخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: 9 - 10]، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِينَ﴾ [الإسراء: 82]، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ

به قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: 97]، ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ اَلْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمْ الذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ﴾ [النحل: 64]، ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44]، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ اَلْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا...الخ﴾ [الزمر: 41]، ويضاف إلى هذا أن القرآن في لغته وسبكه وأساليبه واصطلاحاته ومفهوماته وإشاراته ليس مغلقا أو غامضا ومعقدا أو صعبا على متوسط الأفهام والأدهان، وانه كان يفهمه مختلف أوساط العرب حضرهم وبدوهم بل والمستعربون المقيمون في الحجاز أو الوافدين على النبي عليه الصلاة والسلام من البلاد المجاورة من عرب ومستعمرين أيضا، ففي القرآن آيات كثيرة تشير إلى أن النبي كان يتلو آيات القرآن على مختلف طبقات الناس كما جاء في آيات [الكهف: 27]و[النمل: 92]، و[العنكبوت: 45]، و[الأحقاف: 28 — 30]، [والجن: 1]، مما هو متسق مع مهمته، وأن منهم من كان يقول: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الاَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: 25]، ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: 31]، ولقد تكرر في القرآن المكي والمدني الإشارة إلى أهل الكتاب وأهل العلم وفي بعض الآيات ما يفهم أن من هؤلاء من جاء خصيصا ليجتمع بالنبي ويستمع للقرآن وقد كان منهم من تغيض عيوهم من الدمع ويخرون خشعا سجدا من تأثيرها يسمعون منه ويعلنون إيماهم وتصديقهم به[1] مما يلهم أهم كانوا يسمعون كلاما يفهمونه مع أهم جاؤوا من نجران اليمن أو بلاد الشام أو الحبشة حسب ما أوضحته الروايات، كما أن اليهود الإسرائليين والنصارى غير الحجازيين والذين يمتون أو يمت أكثرهم إلى أصول غير عربية والذين كانوا متوطنين في مكة والمدينة، كانوا ممن وجهت إليهم الدعوة وكان القرآن يتلى عليهم

(1) – انظر علوم القرآن للدكتور أحمد العليمي.

ويفهمونه، وقد اندمجوا في ظروف السيرة النبوية ايجابيا وسلبيا، وإذا كان يبدو اليوم فيه شيء من ذلك منذ قرون عديدة سابقة أو إذا كان يبدوا فيه اليوم وقبل اليوم كذلك مفردات، غريبة على الأسماع والمألوف فإن هذا كله إنما نجم عن بعد الناس عن جو نزول القرآن وزمنه، وجو لغته وجو البئة التي نزل فيها من جهة، وعن ما طرأ على اللسان العربي من الفساد من جهة، وعن ما كان من اندماج كثير من غير العرب في العروبة ولغتها وتعلمها تعلما لا يمكن أن يقوم مقام السليقة الأصلية في بنيها الأصليين من جهة.

ولقد احتوى نصوصا كثيرة تقرر المرّة بعد المرة ما هو عليه من وضوح وإبانة وإحكام وتفصيل ويسر فهم وسهولة إدراك في معرض التنديد بالمكابرين والجاحدين والمجادلين[1]، وهذا إنما هو ملزم مفحم لأن اللغة التي يسمعونها واضحة بينة مما الفوه كل الألفة وليس فيها غموض ولا تعقيد وإشكال، ولا علو عن الأفهام لا من ناحية المعنى والمفهوم والدلالة.

ونريد أن نستدرك شيئا فإننا لسنا نعني بها نقرّره أننا نشك في إعجاز القرآن وعلو طبقته اللغوية والنظمية كما أن كلامنا لا يقتضي ذلك، فإعجاز القرآن لا يحتمل شكا، فهو مقرر في القرآن وثابت فعلا بعجز أي كان عن الإتيان بمثله أو بشيء من مثله رغم تكرر التحدي، والإيمان ندالك واجب وعلو طبقته بارز بروزا في غنى عن التدليل، ولم يبق العلماء التقاة في تقرير ذلك، غير أن الذي نعتيه أن إعجاز القرآن وعلو طبقته وروعة أسلوبة لا تقتضي أن يكون أعلى من مستوى أفهام العرب الذين خوطبوا به ووجه إليهم، ولا أن يكون أبعد من متناول إدراكهم ولا أن تكون مفرداته ومضامينه وتراكيبه غير مألوفة لديهم ولا أن يكون قد قصد به أن يكون معجزا في بلاغته اللغوية والنظمية والفنية والفرق كبير بين المعنيين كما هو

(1) – انظر علوم القرآن للدكتور أحمد العليمي.

واضح فيما يتبادر لنا، ولعله مما يصح أن يذكر في هذا المقام على سبيل التمثيل والتقريب، ولله ولكتابه ونبيه المثل الأعلى، كاتب ذو أسلوب راق شائق قوي النفوذ يجعله في الطبقة الأولى أو ذروتها في حين يكون سهل التناول غير غامض ولا معقد، يستطيع أن يسيغه مختلف القراء وأواسطهم بل وإن هذا الأسلوب ليكون دائما أحسن الأساليب وأفصحها، وهو الذي يسميه البيانيوز بالسهل الممتنع هذا عدا عن إعجاز القرآن فيما نعتقد ليس من ناحية نظمه وأسلوبه اللغويين وحسب بل هو أيضا من ناحية روحانيته النافذة الباهرة التي تنفذ إلى أعماق عقل الإنسان وقلبه وروحه ونعتقد أن لهذا الإعتبار الأول في إعجازه وان التحدي وتقرير عدم إمكان الإتيان بمثله او بشيء من مثله إنما هو: (للقرآن) وهذا هو التعبير الذي استعمل في القرآن الذي هو لغة وأسلوب هو كذلك معان ودعوة قوية نافذة باهرة في مداها ومضمونها وشمولها وسعة أفقها وروحانيتها التي وصف أثرها القرآن نفسه بهذا الوصف: ﴿لَوَ اَنزَلْنَا هَذَا اَلْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: 21]، ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيث كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 23]، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ اَلْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِينَ﴾ [الإسراء: 82].

ثم التي وصف أثرها القرآن في أهل العلم والنية الحسنة من الكتابيين بهذا الوصف، القوي النافذ، ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ اَلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا امَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ، وَمَا لَنَا لاَ نُومِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ اَلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُّدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ [المائدة: 83 — 84]، ﴿وَالذينَ ءَاتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ...﴾ [الرعد: 36]، ﴿قُلَ امِنُواْ بِهِ أَوْلاَ تُومِنُواْ إِنَّ الذينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلاَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً، وَيَخِرُّونَ لِلاَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: 107 - 109]، ﴿وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُواْ ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ اَلْحَقُّ مِن رَبِّنَا...﴾ [القصص: 53].

ولعل من الدلائل على أن لغة القرآن ولغة سنة النبي شيء واحد ونعني المفردات والمصطلحات والتراكيب حكاية القرآن لكلام الكفار وغير الكفار ورده عليهم، والأحاديث الكثيرة جدا الواردة عن النبي وأصحابه التي لا فرق بين لغتها ولغة القرآن، بل ولقد رويت أحاديث تذكر أن بعض الصحابة والكفار قالوا كلاما بعينه فنزل القرآن بنفس النظم الذي صدر عنهم منها:

1 – حديث عمر بن الخطاب روى عنه أنه قال لنساء النبي حينما تآمرنا على النبي بسائق الغيرة ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾ [التحريم: 05].

2 – حديث البخاري مروي عن زيد بن أرقم إنه سمع عبد الله بن أبي يقول: ﴿لاَ تُنْفِقُواْ عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّواْ...﴾ [المنافقون: 07]، ويقول: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الاَعَزُّ مِنْهَا الاَذَلَّ...﴾ [المنافقون: 08].

وآيات سورة المنافقون: [7 – 8] وسورة التحريم: [5] قد احتوت هذه النصوص كما هو معلوم.

ونحن نرى هذا بديهيا من تحصيل الحاصل، ولكنّا أثبتناه لأن فكرة أن هناك فرقا عظيما بين لغة القرآن ولغة أهل بيئته وأن تلك اللغة أعلى من مستوى أفهام هؤلاء قوية الرسوخ، ومما يقوم شاهدا قرآنيا على هذا الذي نقرره في هذه النقطة خاصة ما جاء في بعض الآيات من حكاية لأقوال الكفار في القرآن مثل: ﴿إِنْ هذا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: 25] ﴿وَقَالُواْ أَسَاطِيرُ الْاَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفرقان: 05] ﴿قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الاَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: 31].

فهذه النصوص تتضمن قرائن حاسمة على أن سامعي القرآن وخاصة الطبقة المتزعمة والنّبيهة التي كانت تتولى كبر المعارضة وقيادتها كانوا يسمعون كلاما يفهمونه كل الفهم بجميع دقائقه، لا يعلو عن أفهامهم ولا يبعد عن مألوفهم ويرونه شبيها بأقوال الناس بل ويضعونه بأنه كذلك.

ونريد كذلك أن ننبه على نقطتين أخريين فأولا أن ما قلناه من فهم المخاطبين العرب على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم للقرآن لا يقتضي أن يكون متناقضا مع ما هو مقرر بصورة حاسمة من أن لغة القرآن هي لغة قريش، فالقرآن وجه أول ما وجه إليهم وإلى القبائل والمدن الحجازية كما جاء في آيتين متماثلتين في سورتي الأنعام والشورى وهما: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: 92].

2 – ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: 7].

على أن لغة قريش من جهة أخرى كانت إجمالا في عهد البعثة النبوية لغة العرب جميعهم على اختلاف منازلهم أو على الأقل مفهومة من العرب جميعهم: بسبب ما كان من اشتداد التحاك بين قريش وسائر العرب في مواسم الحج التي كانت تقام قبل البعثة النبوية بمدة طويلة وبسبب وحدة الأصل من حيث المبدأ.

ولعل في آية الشورى الآنفة الذكر خاصة دلالة أو قرينة على ذلك حيث وصفت القرآن بالعروبة مع إشارتها إلى مهمة الرسول في إنذاره مكة ومن حولها وقد وصف القرآن بهذا الوصف في آيات مكية عديدة أخرى كما ترى فيما يلي:

1 – ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ...﴾ [يوسف: 2].

2 – ﴿وَكَذَلِكَ أنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: 37].

3 – ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ...﴾ [الشعراء: 193 – 195].

4 – ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: 27 – 28].

5 – ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتَ ايَاتُهُ قُرْءانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصّلت: 3].

6 – ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: 3]، مما يدعم النقطة التي قررناها، وكذلك ممّا يدعمها أن القرآن وصف غير العربية بالأعجمية كما ترى فيما يلي:

1 – ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: 103].

2 – ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءانًا اَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلاَ فُصِّلَتَ ايَاتُهُ ءآعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: 44].

بحيث يستفاد من ذلك أن العربية كانت حينما تطلق تشمل لغة العرب جميعهم، وأنه لم يكن للعرب جميعهم لغة غير اللغة التي نزل بها القرآن وأن لغة قريش التي هي لسان النبي الذي ذكر القرآن أن اللّه قد يسر القرآن به أي لغته كانت هي لغة العرب جميعهم.

وثانيا: أن ما قلناه من أن كل كلمة في القرآن كانت مفهومة من العرب على حقيقة مداها ومعناها لا يقتضي أن يكون مناقضا لما هو طبيعي فرضا وواقعا وبديهة من وجود كلمات فيه لا يفهم مداها ومعناها إلا الفئات الخبيرة النيرة منهم بل ومن وجود كلمات قد لا يكون سمعها أو قد يجهلها بعض أفراد من هذه الفيئات نفسها، ومن وجود أفراد قليلين أو كثيري، أو قبائل برمتها تجهل المعنى الحرفي لقليل أو كثير من مفردات القرآن بل ومن بعض تعابيره كذلك، وهذه الظاهرة مشاهدة ملموسة في كل ظرف وقطر ومن كل فيئة بما فيها الفيئات المتعلمة ومع ذلك فمن المشاهد الملموس أن الناس على اختلاف فيئاتهم وثقافاتهم وخاصة أواسطهم لا يعييهم أن يفهموا ما يقرأونه من رسائل وكتب وصحف ويسمعونه من خطب وإذاعات وطبيعي أن العرب في عصر النبي وعهد بعثته لم يكونوا ليخرجوا عن نطاق هذه الظاهرة.

وإذا روى عن بعض الصحابة جهلهم لمعنى كلمة من الكلمات القرآنية فلا يكون في ذلك غرابة ما بقطع النظر عن صحة الرواية متنا وسندا.

ومن هذه البيانات تتجلى فائدة الملاحظة التي هي موضوع البحث الأصلي مهما بدت للبعض بديهية، حيث تجعل الناظر في القرآن يندمج في جو لغته وأساليبه... واصطلاحاته التي هي لغة عهد نزوله وأساليبه واصطلاحاته، ولا ينجر إلى معان ومدى ومفهومات وتزيدات وتكلفات وتخمينات ومعميات لا تتحملها نصوص القرآن وأساليبه ودلالاته وظروف نزوله ومهمة من أنزل عليه.

- القراءات ونشأتها:

لم يكن امتزاج اللغات ولا اتحاد اللهجات تاما من كل وجه عند انبثاق نور الإسلام[1] وإنما بقي على نواحي الألسنة لحون مختلفة كالفتح والإمالة والإظهار والإدغام، والمد والقصر،وتحقيق الهمز وتخفيفه، وترقيق الحرف وتفخيمه، وضم الهاء والميم في نحو عليهم وإليهم، فلما نزل القرآن بلغة قريش ولهجتهم لم يستطع من عداهم من العرب أن يتغلبوا في الزمن اليسير على الفطرة اللغوية، واللهجة الأمية، فقرؤه بلحونهم وأقرهم[2] الرسول ﷺ على ذلك تيسيرا للقراءة وتسهيلا على الناس.

فلما اختبلت الألسنة، واظطربت السلائق، وزاغت القلوب بعد اتساع الفتوح وانتشار العرب وانشعاب الفرق، نشأ من جهلهم بالهجاء ومن شدة اختلافهم في المنطق والأداء، ومن جرأة ذوي العلل والمراء، قراءات

---

(1) – يدلك على ذلك خطب الوفود الذين وفدوا على الرسول ﷺ فقد بلغ من اختلافها على لغة قريش أن قال علي رضي الله عنه لرسول الله وقد سمعه يخاطب وفد بني زهد يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لم نفهم أكثره! فقال عليه الصلاة والسلام: "أدبني ربي فأحسن تأديبي".

(2) – انظر رواية عمر في الصفحة الموالية.

لم تظاهرها العربية ولا صحة السند، ولا رسم المصحف، فتجرد قوم في المائة الأولى لضبط القراءات وحصر وجوهها وتبيين مذاهبها، وجعلوها علما كما فعلوا يومئذ بالحديث والتفسير، واشتهر من هؤلاء ومن الطبقة التي وليتهم سبعة تنسب إليهم القراءات إلى اليوم وهم: عمرو بن العلاء (ت 154)، وعبد اللّه بن كثير (ت 120)، ونافع بن نعيم (ت 169)، وعبد اللّه بن عامر (ت 118)، وعاصم ابن بهدلة الأسدي (ت 128)، وحمزة بن حبيب الزيات (ت 156)، وعلي بن حمزة الكسائي (ت 189)، وتلك هي سبع القراءات المتفق على صحتها إجماعا، وهناك ثلاث قراءات تليها في الصحة والتواتر وهي: قراءة أبي جعفر المدني (ت 132)، وقراءة يعقوب بن اسحاق الحضرمي (ت 185)، وقراءة خلف بن هشام، وما سوى هذه العشرة فشاذ.

روى عن عمر بن الخطاب قال: "سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول اللّه ﷺ فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأها على حروف كثيرة لم يقرأنيها رسول اللّه ﷺ كذلك فكدت أساوره في الصلاة، فصبرت حتى سلم، فلما سلم لببته بردائه، فقلت من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأها، قال: اقرأنيها رسول اللّه ﷺ فقلت كذبت فوا اللّه إن رسول اللّه ﷺ لهو أقرأني هذه السورة فانطلقت به أقوده إلى رسول اللّه ﷺ فقلت يا رسول اللّه إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرا نيها، وأنت اقرأتني سورة الفرقان فقال رسول اللّه ﷺ اقرأ يا هشام فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأها فقال: هكذا أنزلت ثم قال: اقرأ يا عمر، فقرات القراءة التي اقرأني رسول اللّه ﷺ فقال: هكذا أنزلت، ثم قال: إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منها، والمراد بالأحرف اللغات التي تختلف بها لهجات العرب.

الفصل السابع

- مجموعة من الأحاديث والروايات والأقوال في تدوين القرآن:

هناك أحاديث وروايات وأقوال استفاد منها أن القرآن كان يدون وترتب آياته وسوره في حياة النبي عليه الصلاة والسلام وبأمره، وأن ترتيب المصحف العثماني متصل بعهد النبي وتوقيفه.

1 – فقد أخرج الحاكم عن زيد بن ثابت حديثا وصف بأنه بسند صحيح على شرط الشيخين جاء فيه: "كنا عند رسول اللّه نؤلف القرآن من الرقاع، وقد علق البيهقي على ذلك كما جاء في الإتقان بقوله يشبه أن يكون المراد به تأليف ما نزل من الآيات المفرقة في سورها وجمعها فيها بإشارة النبي، ويصح أن يستفاد من الحديث أنه كان يكتب ما يترل به الوحي في رقاع منفردة ثم تنقل هذه الرقاع إلى صحف معدة كالسجل فتلحق فصولها ببعضها وفق ما كان يشير به النبي.

2 – وقد اخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حيان والحاكم حديثا عن ابن عباس جاء فيه: قلت لعثمان ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما و لم تكتبوا بينهما سطر بسم اللّه الرحمن الرحيم ووضعتوهما في السبع الطوال، فقال عثمان: كان رسول اللّه تترل عليه السور ذات العدد ، فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب له فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قضيتها شبيهة بقضيتها فظننت أنها منها وقبض رسول اللّه و لم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما و لم أكتب بينهما سطر بسم اللّه الرحمن الرحيم ووضعتهما في السبع الطوال، وهذا يفيد أن الأنفال في زمن النبي كانت تدون قبل براءة مباشرة و لم يكن بينهما فاصل أو بسملة فتركنا على ذلك وهو الترتيب المتداول.

3 — وأخرج الإمام مسلم حديثا عن عمر قال: "ما سألت النبي عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن في صدري بأصبعه وقال: "تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء".

وهذا يفيد أن سورة النساء كانت مرتبة على ما هو عليه في المصحف المتداول في حياة النبي، ولو لم يكن ترتيبها بتوقيف النبي وإشارته لوضعت الآية المذكورة في مكان أكثر مناسبة من السورة.

4 — وأخرج الإمام البخاري حديثا عن عبد اللّه بن الزبير جاء فيه قلت لعثمان ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ [البقرة: 234]، قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها، قال: يا ابن أخي لا أغير شيئا من مكانه، الآية الناسخة في سورة البقرة وهي الآية (234) متقدمة في الترتيب على الآية المنسوخة في نفس السورة وهي (240)، وجواب عثمان يفيد أن الترتيب إنما كان بإشارة النبي فلم ير تغيير شيء من مكانه.

5 — وأخرج الإمام أحمد حديثا بإسناد وصف أنه حسن، عن عثمان بن أبي العاص قال: "كنت جالسا عند رسول اللّه إذا شخص ببصره ثم صوبه ثم قال: "أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآيات في هذا الموضع من هذه السورة" ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالاحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى...الخ﴾ [النحل: 90].

وهذا يفيد أن النبي كان يأمر بوحي اللّه بترتيب آيات السور وأن الترتيب المتداول هو مستند إلى ذلك.

6 — وروى البخاري حديثا عن زيد بن ثابت أن رسول اللّه أملى عليه ﴿لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُومِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فجاء ابن أم مكتوم وهو يملها عليه فقال: "يا رسول الله واللّه لو أستطيع الجهاد لجاهدت وكان أعمى، فانزل اللّه على رسوله وفخذه على فخذه فثقلت عليه حتى خاف أن ترض فخذه ثم سرى عنه فأملى عليه: ﴿غير أولي الضّرر﴾.

وهذا يفيد أن النبي كان يستدعي أحد كتاب الوحي حين نزول القرآن عليه فيملي عليه ما يترل عليه فورا.

7 – وقد روى علماء الحديث حديثا ورد في أكثر من كتاب من كتب الحديث المشهورة جاء فيه: "لا تكتبوا عني غير القرآن" حيث يفيد أن الصحابة كانوا يدونون في حياة النبي ما يسمعونه من النبي من القرآن.

8 – وروى وائلة عن النبي قال: "أعطيت مكان التوراة السبع الطوال ومكان الزبور المئين ومكان الإنجيل المثاني وفضلت بالمفصل" وهذا يفيد أن ترتيب سور القرآن حسب المصحف المتداول الطوال أولا فالمئين ثانيا فالمثاني ثالثا فالمفصل رابعا من ترتيب النبي وعهده.

9- وروى البخاري حديثا عن ابن مسعود أن النبي قال: "إن بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأولى وهن من تلادي". وهذه السور متسلسلة الترتيب في المصحف المتداول وفاق الترتيب الوارد في الحديث.

10 – وأخرج الإمام أحمد وأبو داود حديثا عن أبي أوس وكان قدم على النبي في وفد جاء فيه: قال لنا رسول اللّه ﷺ: "قرأ عليّ حزب من القرآن فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه" فسألنا أصحاب رسول اللّه كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزبه ثلاث سور وخمس سور وسبع سور وتسع سور وإحدى عشرة سور وثلاث عشرة سورة، وحزب المفصل من سورة (ق) حتى نختتم. وعدد السور من البقرة إلى الحجرات تسع وأربعون ومجموع عدد السور المحزبة هو تسعة وأربعون، والحديث يفيد أن سور القرآن كانت وفاق ترتيب سور المصحف المتداول منذ حياة النبي.

11 – وروى البخاري حديثا آخر عن أبي هريرة جاء فيه: "كان القرآن يعرض على النبي كل عام مرة فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه، وقال البغوي في شرح السنة أن زيدا ابن ثابت شهد العرضة الأخيرة التي بين فيها ما

نسخ وما بقي وكتبها رسول اللّه وقرأها عليه وكان يقرئ الناس بها حتى مات، ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر في جمعه للقرآن وولاه عثمان كتب المصاحف".

وهذا يفيد أن النبي كان يستعرض القرآن جميعه في رمضان وأنه استعرضه مرتين في رمضان الأخير وان المصحف الذي كتبه زيد في عهد أبي بكر إنما كان وفاقا لذلك نصا وترتيبا.

12 – وأخرج الحاكم عن عبد اللّه بن قسطنطين أنه قرأ ختمة على عبد اللّه بن كثير، وهذا إمام من أئمة القراء وهو تابعي، فلما بلغ الضحى قال: كبّر حتى تختم، واخبره أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك، وأن مجاهدا أخبره أنه قرأ على ابن عباس فأمره بذلك، وأن ابن عباس أخبره أنه قرأ على أُبَيْ فأمره بذلك، وأن أبيا أخبر ابن عباس أنه قرأ على النبي فأمره بذلك وقد روى عن الإمام الشافعي أنه قال: "إذا تركت التكبير فقد تركت سنة من سنن نبيّك"، وهذا وذاك يفيد أن القرآن كان مرتب السور في حياة النبي وفاق ترتيب المصحف المتداول.

13 – وروى أبو منصور الأرجاني في كتاب فضائل القرآن أن النبي كان يقول عند ختم القرآن: "اللهم ذكرني منه ما نسيت وعلمني منه ما جهلت وارزقني تلاوته أناء الليل والنّهار واجعله حجّة لي يا رب العالمين".

وهذا يفيد ما تفيده الأحاديث السابقة آنفا.

وفي مسند الإمام أحمد حديث عن عبد اللّه بن مسعود جاء فيه: "انه سمع من فم رسول اللّه بضعا وسبعين سورة"، وهذا يفيد أن ما يقرب من ثلثي سور القرآن كان معروف الشخصية تام الترتيب في آياته منذ حياة النبي عليه السلام.

14 – وفي حديث البخاري أن بن عباس قال: "أنه جمع المحكم في عهد رسول اللّه، فسأله الراوي عن المحكم فقال: المفصل، وكان ابن عباس صبيا في حياة النبي كما هو معروف"، وهذا يفيد أن السور كانت مرتبة وفاق ترتيبها المتداول، الأطول فالمئون فالمثاني فالمفصل، وأن القرآن كان يحفظ على ما اعتبر حفظه إلى اليوم الأقصر أولا...

15 – وأخرج الحاكم حديثا عن ابن عباس وصف بأنه صحيح أنه قال: "كان النبي إذا جاءه جبريل فقرأ بسم اللّه الرحمن الرحيم، علم أنها سورة"، وورد حديث آخر عن ابن عباس جاء فيه: "كان المسلمون لا يعلمون انقضاء السورة حتى أنزل "بسم اللّه الرحمن الرحيم"، وأخرج البيهقي عن ابن مسعود أنه قال: "كنا لا نعلم فصلا بين سورتين حتى تنزل بسم اللّه الرحمن الرحيم"، وهذا يفيد أن شخصيات السور أو بالأحرى ترتيب الآيات سورا تامة كان معروفا في حياة النبي.

16 – وقد ذكر السيوطي أقوالا لبعض علماء القرآن تفيد أنهم كانوا يعتقدون بصحة ما احتوته الأحاديث والروايات في هذه المجموعة من تقريرات بوجه الإجمال فقد أثر عن الحارث المحاسبي في كتاب فهم السنن قوله إن كتابة القرآن ليست محدثة فإن النبي كان يأمر بكتابته، وقال أبو بكر الأنباري أن اتساق السور كاتساق الآيات والحروف، كله عن النبي فمن قدم سورة أو آخرها فقد أفسد نظم القرآن، وقال الإمام مالك برواية ابن وهب: "إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعونه من النبي" وقال البيهقي: "كان القرآن على عهد رسول اللّه مرتبا سوره وآياته على هذا الترتيب"، وقال البغوي في شرح السنة: "إن الصحابة قد جمعوا بين الدفتين والقرآن الذي أنزله اللّه على رسوله من غير أن زادوا ونقصوا منه شيئا خوف ذهاب بعضه بذهاب حفاظه، فكتبوه كما سمعوه من رسول اللّه من غير أن قدموا شيئا أو أخروه أو وضعوا ترتيبا لم يأخذوه عن رسول اللّه، وكان رسول اللّه يلقن أصحابه ويعلمهم ما نزل عليه على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا بتوقيف جبريل إياه على ذلك"، وقال ابن الحصار: "إن ترتيب السور في وضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحي فكان رسول اللّه يقول: "ضعوا آية كذا في موضع كذا"، وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول اللّه وممّا أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف.

17 – وقال أبو بكر الباقلاني: "والذي نذهب إليه أن جميع القرآن الذي أنزل اللّه وأمر بإثباته ورسمه ولم ينسخه ولم يرفع تلاوته بعد نزوله هو هذا

الذي بين الدفتين الذي خواه مصحف عثمان، وأن ترتيبه ونظمه كلاهما ثابت على ما نظمه اللّه سبحانه ورتبه عليه رسوله من آي وسور لم يقدّم من ذلك مؤخّر ولا أخّر منه مقدّم، وأن الأمة ضبطت عن النبي ترتيب آي كل سورة ومواضعها كما ضبطت عنه نفس القراءة وذات التلاوة.

18 – وقال العالم المذكور في كتابه الإنتصار: "لم يقصد عثمان قصد أبي بكر في جمع نفس القرآن بين لوحتين، وإنما قصد جمعه على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي والغاء ما ليس كذلك وأخذهم بمصحف واحد مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتي بعده.

19 – وقال ابن الجوزي: "وإنما لم يجمع رسول اللّه لأنه كان بمعرض أن ينسخ منه أو يزاد عليه فلو جمعه كان الذي عنده نقص ينكر على من عنده زيادة، فلما أمن هذا الأمر بموته جمعه أبو بكر، ولم يصنع عثمان في القرآن شيئا وإنما أخذ الصحف التي وضعت عند حفصه، وأمر زيد بن ثابت وعبد اللّه بن الحارث بن هشام وعبد اللّه بن الزبير، وسعيد ابن العاص وأبي بن كعب في اثني عشر رجلا من قريش والأنصار فكتب منها مصاحف وسيرها للأمصار.

وننبه على أننا هنا بسبيل الاستلهام من القرآن، وتعتقد أن ما أوردناه من الروايات والأحاديث والأقوال بان ترتيب الآيات في السور وترتيب السور في تسلسلها المتداول في حياة النبي وبأمره هو قوي بذاته فضلا عن ما تلهمه القرائن القرآنية، وقوته مستمدة بنوع خاص من اتساقه مع طبائع الأمور والظروف، ومن سكوت جميع الروايات والأحاديث المتصلة بأصحاب رسول اللّه ﷺ عن القول بأن تحرير المصحف في زمن أبي بكر ونسخ المصاحف في زمن عثمان، قد يستهدف ترتيب آيات في سور أو سور في تسلسل أو تناولاه، ولهذا دلالته الخطيرة، ومن أن مصحف عثمان هو نسخة طبق الأصل لمصحف أبي بكر وهو أصل المصحف المتداول في ترتيبه وسوره.

هذا وأخيرا نريد أن ننبه على أمر مهم في صدد هذه المباحث ومداها فإن ما تناولته إنما هو بسبيل البحث العلمي والتاريخي ليس من شأنه أن يمس لب الموضوع، وهو كون القرآن المتداول بين المسلمين والذي هو في متناول الجميع سوره وفصوله ومجموعاته وآياته وكلماته ونظمه متصلا بالنبي وصادرا عنه مباشرة بوحي ربّاني نزل على قلبه، وكون هذا لم يكن في وقت من الأوقات موضع أخذ ورد ومحل شك وتوقف من قبل المسلمين على اختلاف نحلهم وفرقهم وأهوائهم ومن لدن مشاهدي العيان في حياة النبي إلى الآن، كما أن صدوره مباشرة عنه لم يكن محل ريب من قبل غير المسلمين أيضا وكون ما جاء ذكره في الروايات جميعها وعلى ما فيها من علل كثيرة من الآيات والكلمات والحروف لا يزيد على أكبر تقدير عن واحد في المائة من آيات القرآن التي تزيد عن ستة آلاف ومائتين، وكلماته التي تزيد عن سبعة وسبعين ألفا وحروفه التي تزيد عن ثلاثمائة ألف، وكون هذه النسبة التافهة جدا مع العلل الكثيرة التي تجعلها غير صحيحة ليس من شأنها أن تخل بتلك الحقيقة المسلم بها، وأن القرآن كان وظل ولن يزال معجزة النبي العظمى الخالدة أصفي منبع للأحكام والعقائد والتشريع والإلهام والفيض والتوجيه والتلقين، فيه الحق والهدى والصدق والرشد وفيه المبادئ السامية والشفاء للصدور والعلاج للنفوس والحلول لتنوع المشاكل الإيمانية والروحية والسلوكية للناس كافة، انزله اللّه على قلب نبيه الكريم وخلفه النبي عليه السلام في المسلمين فلا يضلون أبدا إذا ما اتبعوه وتمسكوا به، يهدي به اللّه من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم.

وإنّه ليصح أن يقرر جزما أنه قد ظل سليما في حفظ اللّه، محفوظا كل الحفظ من كل تبديل وتغيير وتحريف وزيادة ونقص مجمعا عليه في رسم واحد ونص واحد ومصحف واحد وترتيب واحد في مشارق الأرض ومغاربها وظل يحتفظ بإشراقه وسنائه وروحانيته، ونفس ألفاظه وحروفه وأسلوب ترتيله وتلاوته التي تلاها رسول اللّه وبترتيبه الذي وضعه، وبكل ما فيه من معاتبات

ومؤخذات وبهت وتكذيب وهزء وزراية ونسبة افتراء وسحر وشعر وكهانة وتعلم واقتباس وجدل مع مختلف طبقات الناس، ومن تقريرات لحقيقة شخصية الرسول البشرية وتطور في التشريع والمواقف المتنوعة مما لم يتيسر لأي كتاب سماوي ولا لأي نبي، وظل بعد هذا مرجع كل خلاف، والحكم في كل نزاع بين المسلمين على اختلاف فرقهم وأهوائهم والقول الفصل في كل مذهب وعند كل نحلة من مذاهبهم ونحلهم على كثرتها فتحققت بذلك معجزة الآية الكريمة ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9]، وإنها لمعجزة كبرى تستحق التنويه في هذا المقام، ويكفي لتبيين خطورتها أن نذكر ما كان من فتن وخلاف وشقاق وحروب منذ صدر الإسلام الأول وما كان من اجتراء الناس في ذلك العهد وبعده على رسول الله والكذب عليه في وضع الأحاديث المتضمنة تأييد فئة على فئة ورأى على رأي ودعوة على دعوة ولا ضعاف ذلك بالمقابلة، وما كان من وضع الروايات والأحاديث الصرف آيات من القرآن إلى غير وجهها بسبيل ذلك وما كان من استعلاء قوم على قوم وشيعة على شيعة استعلاء القوة والسلطان مع اشتداد العداء والتجريح واشتداد تيار الأحاديث المفتراه، وأن نذكر أن هذا كان في حين لم يكن من المستحيل أن يجرأ الذين اجترؤوا على رسول الله على كتاب الله فيغيروا ويبدلوا ويزيدوا وينقصوا شيئا جوهريا سائغا على المسلمين وينشروا به مصاحف جديدة وخاصة في الآيات التي حاولوا صرفها لتأييد الأراء والأهواء أو إضعافها لتكون أكثر مطابقة مع الوجوه التي أريد صرفها إليها سلبا وإيجابا ونفيا وإثباتا، وفي حين كانت الكتابة العربية سقيمة محرجة ولم يكن قد اخترع الشكل والإعجام، وكان التشابه بين الحروف كثيرا واحتمال اللبس قويا، وحفظت ببركته اللغة العربية القرشية التي نزل بها قوية مشرقة بكل ما وصلت إليه من سعة وبلاغة ودقة وقوة ونفوذ وعمق لتظل لغة الأمة العربية الفصحى في كل صقع وواد، وفي كل دور وزمان وهو سالم يتيسر لأمة من أمم الأرض ولتكون إلى ذلك لغة

عبادة الله لجميع الملل الإسلامية المنتشرة في أنحاء الأرض خلال أربعة عشر قرنا ثم خلال القرون الآتية إلى آخر الدهر بل لتترشح لتكون لغة العالم الإسلامي، وحفظت ببركته الأمة العربية قوية الحيوية دون أن يبيدها ما نزل بها من ضروف الدهر الجسام التي أباد أخف منها من هو أقوى منها تكمن فيها مواهبها العظيمة وخصائصها القومية التي جعلتها خير أمة أخرجت للناس إن هي قامت بما حملها إياه القرآن من عبء الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإتماما لموضوع تدوين القرآن نرى أن نورد بعض البحوث الموجزة في أمور تتصل به.

أ – أولا: أسماء السور:

1 – إن الضابط أو الأصل العام في تسمية السور القرآنية على ما يبدو من أسمائها هو تسمية السور بكلمة أو باشتقاق كلمة واردة فيها، وإذا كانت الأسماء المشهورة لبعض السور لا تستمد من هذا الأصل مثل سور الفاتحة والأنبياء والإخلاص فإن هناك روايات بأسماء أخرى لهذه السور تستمد منه مثل الحمد للأولى، واقتربت للثانية، والصمد للثالثة.

2 – على أن بعض المصاحف يختلف عن بعض في الأسماء مع المحافظة على ذلك الأصل، فسورة التوبة مثلا تذكر في بعض المصاحف باسم "براءة" والإسراء باسم "إسرائيل" وغافر باسم "المؤمن" وفصلت باسم "السجدة" والملك باسم "تبارك" والنبأ باسم "عمّ" والبينة باسم "لم يكن" والمسد باسم "أبو لهب" و"تبت" والإخلاص باسم "الصمد".

3 – وهذا الاختلاف ناتج عن روايات مختلفة معزوة إلى بعض الصحابة كما أن هناك روايات مثلها بتسمية سور أخرى بأسماء أخرى وإن لم نطلع على مصاحف تذكر ذلك مثل سورة التوبة التي يروي أن من أسمائها "العذاب" و"المشردة" و"المشكلة" و"المدمدمة" و"المتشقشقة" والفاتحة التي يروي من أسمائها: "السبع المثاني" و"الوافية"و"الشافية"

و"الصلاة" و"الدعاء" و"أم القرآن" و"القرآن العظيم" والأنفال، والشعراء، والنمل، والسجدة، والزمر، وفصلت، والجاثية، وق، والمجادلة، والحشر، والطلاق، والصف، والنصر، التي لها أسماء أخرى هي بالتوالي: "بدر، والجامعة، وسليمان، والمضاجع، والغرف، والمصابيح، والباسقات، والظهارة، والتصير، والنساء الصغرى، والحواريين، والتوديع"، وهناك كذلك روايات سميت فيها بعض السور بأكثر من كلمة واحدة مثل سورة المؤمنين"، التي ذكرت بتعبير "قد أفلح المؤمنون" والإنسان بتعبير: "هل أتى علم الإنسان" والأعلى بتعبير" سبح اسم ربك الأعلى" والليل بتعبير"والليل إذا يغشى".

4 – هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن هناك أحاديث وروايات مختلفة في طريقة تسمية السور، فقد روى عن أنس بن مالك حديث جاء فيه: "لا تقولوا سورة البقرة ولا سورة آل عمران، وقد ذكرت جل السور في تفسير ابن عباس رواية أبي صالح بالطريقة الثانية في حين أن البخاري روى عن ابن مسعود في معرض تجويز القول سورة كذا أنه قال: "هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة" وان هناك أحاديث نبوية وصحابية نقلناها في مبحث تدوين وترتيب القرآن احتوت أسماء بعض السور، بالطريقة المختصرة المتداولة، أي سورة البقرة، وسورة آل عمرا، وسورة النساء وسورة الكهف...الخ بل هناك حديث طويل منسوب للنبي ورد فيه جميع السور وفضائلها، ذكره الزمخشري والخازن والبيضاوي في تفسيرهم بالطريقة المتداولة المختصرة وأوردوا وراء تفسير كل سورة فضيلة السورة المذكورة في الحديث.

5 – ومن جهة ثالثة فأن أسماء السور لم تكتب في جميع المصاحف المخطوطة التي هي الأصل في المصاحف المطبوعة، والتي كانت هي المتداولة قبل الطباعة على رؤوس الصحف حيث منها ما كتب فيه الأسماء في فواصل السور وعلى رؤوس الصحف، ومنها ما كتبت فيه الأسماء في فواصل السور فقط.

فكل ما تقدم يمكن أن يسوغ القول أن كتابة أسماء السور في فواصلها وعلى رؤوس صحف المصاحف، حسب المتداول ليست واردة في مصحف عثمان لأنها لو كانت كذلك لما كان محل لهذا الخلاف في التسمية والكتابة، وإنما هو عمل تنظيمي متأخر عن نسخ هذا المصحف، وقد يكون بل هذا هو الأرجح مستندا إلى روايات تنوقلت فكتبت في المصاحف وكتب القراءات والتفاسير على الوجه الشهير والمتداول أو المختلف أحيانا وترجح بناء على ذلك أيضا أن للأحاديث والروايات أصلا صحيحا، وكان للسور كلها أو كثير منها منذ عهد النبي أسماء تذكر وتعرف بها.

ب – فصل السور بالبسملة:

وثانيا: فصل السور بالبسملة:

إن المصحف العثماني ومصحف أبي بكر الذي نسخ ذلك عنه قد فصل بين السور فيه بالبسملة كما يستفاد من أحاديث ابن عباس وابن مسعود التي أوردناها في بحث التدوين، وليس من خلاف في ذلك بين المصاحف المتداولة، ولذلك يصح أن يقال بشيء من الجزم أن هذا متصل بأول ترتيب المصحف من عهد أبي بكر وبالتالي بترتيب السور في حياة النبي، وهناك اختلاف في ما إذا كانت البسملة آية أصيلة في كل سورة أم لا، ومنشأ هذا الخلاف على الأرجح أحاديث ابن عباس وابن مسعود من أن الوحي كان يترل بالبسملة في أول كل سورة، وأنهم كانوا يعرفون أنها سورة جديدة بذلك، فمن أخذ بهذه الأحاديث اعتبر البسملة آية أصيلة ومن لم يأخذ بها لم يعتبرها كذلك، هذا مع التنبيه على أن الجمهور على أن البسملة في الفاتحة آية أصيلة، ومهما يكن من أمر فإن هذا الخلاف لا ينقض ما جزمنا به من اتصال فصل السور بالبسملة منذ ترتيب المصحف الأول.

ج – السجدات:

وثالثا: السجدات ومواضعها:

إن هناك أحاديث عديدة متصلة بأصحاب رسول اللّه ومستندة إلى مشاهدة النبي على اختلاف وتفاوت في اسنادها ومتونها تعين أربع عشرة سجدة في القرآن وللفقهاء بحوث مستندة إلى هذه الأحاديث في وجوب السجود عند تلاوتها أو استحسانه أو عدم وجوبه في بعضها دون بعض حيث أوجبه بعضهم في بعضها، على اختلاف في ذلك مرجعه اختلاف متون الآحاديث وأسنادها ورتبها مما لا نرى ضرورة للتوسع فيه هنا.

ونكتفي بالقول أن هذا الاختلاف يدل على أن مواضع السجدات لم تكن معينة كتابة أو اشارة في مصحفي أبي بكر وعثمان، وأن روايتها ظلت تتناقل فأخذ بعض نساخ المصاحف يشير إلى مواضعها فيها متأخرا عن دينك المصحفين كعمل تنظيمي وفي وقت ليس من السهل تعيينه، وإن كان اختلاف أئمة المذاهب يمكن أن يساعد على القول، أن ذلك كان في القرنين الثاني والثالث الهجريين.

د – ورابعا: مبادئ الأجزاء والأحزاب:

إن كذلك هناك بعض الخلاف في مبادئ الأجزاء والأحزاب وأواخرها، وليس هناك فيما أطلعنا عليه أحاديث متصلة بالنبي أو أصحابه عن هذه التقسيمات الموجودة في المصاحف المتداولة عن الحديث المطلق الذي أوردناه في المجموعة السالفة عن تحزيب القرآن والذي لا يفيد شيئا في ما نحن بصدده وإن كان يستأنس أن قراء القرآن منذ حياة النبي عليه السلام كانوا يقرأونه أقساما أقساما، ويقفون عند مواقف خاصة حينما يتوقفون عن القراءة، وهذا يسوغ القول أن هذه التقسيمات في المصاحف عمل تنظيمي متأخر عن المصحف العثماني مع التنبيه على أن ذلك الحديث يمكن أن يكون الباعث عليه، ولعله مستند إلى قراءة القراء التي كان القراء يتلقونها شفهيا خلفا عن سلف إلى أن تتصل بأصحاب رسول اللّه.

هـ - كتابة ترتيب نزول السور القرآنية وعدد آياتها:

خامسا: كتابة ترتيب السور القرآنية وصفاتها وعدد آياتها وأرقامها وفواصلها:

إن بعض المصاحف تذكر في فواصل السور أولا: ترتيب نزول كل سورة أي أن السورة قد نزلت بعد السورة الفلانية، ثانيا: وصفة كل سورة أي مكية أو مدنية، ثالثا: وعدد آيات كل سورة، رابعا: ورقم الآيات المكية في السورة المدنية، ورقم الآيات المدنية في السورة المكية إذا كانت السورة آيات مكية ومدنية معا، خامسا: ورقم كل آية بعد كتابتها في السورة وان بعض المصاحف لا تذكر شيئا من هذا، وتكتفي بذكر اسم السورة، وإن بعضها تذكر بعض هذه الأمور دون بعض، وأن بين هذه المصاحف التي تذكر هذه الأمور جميعها أو بعضها اختلافا في ما تذكره حيث يذكر بعضها سورة ما مكية بينما يذكرها بعضها مدنية وحيث يكون عدد آيات السورة في مصحف أقل أو أكثر منه في مصحف آخر، وحيث يكون عدد الآيات المكية والآيات المدنية في السور المدنية والمكية وأرقامها في مصحف مغايرة لعددها وأرقامها في مصحف آخر،وحيث توضع فاصلة وراء آية ما في بعضها بينما لا تكون مفصولة في بعضها وحيث تكون الفواصل بين الآيات في بعضها صماء بينما تكون في بعضها تحمل رقم الآية المتسلسل.

فالواضح من كل ذلك أن هذه الأمور عدا فصل الآيات بفاصلة ما هو عمل تنظيمي متأخر وليس له أصل في المصحف العثماني.

وقد استثنيا فصل الآيات بفاصلة ما لأننا نعتقد أن المصحف العثماني لم يسرد الآيات سردا دون فصل بينهما، ولأن الآية هي الوحدة القرآنية الصغرى المستقلة، وقد أشير إليها في القرآن نصا كذلك كما جاء مثلا في آية النحل هذه: **﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾** [النحل: 101]، فلا يعقل إلا أن توضع فواصل بين الآيات، ولعل الفاصلة التي كانت تفصل بين الآيات في المصحف العثماني هي نقطة صماء.

وهناك اختلاف في عدد آيات كثير من السور، وقد ذكر السيوطي في الإتقان أن المتفق على عدد آياته أربعون سورة فقط، ومع أن هناك حديثا أورده ابن العربي عن النبي عليه السلام، ونقله السيوطي، يفيد أن الفاتحة سبع آيات، والملك ثلاثون آية فإن هذا لم يمنع الخلاف على عدد آيات هاتين السورتين أيضا، وقد قال بعض العلماء: أن سبب اختلاف السلف في عدد الآيات أن النبي عليه السلام كان يقف على بعض كلمات من الآيات فيحسب السامع أنه يقف على آخر الآية، على أن مما يرد أن يكون ليس في تمييز بعض الفواصل في المصحف العثماني، فكان هذا الخلاف في المصاحف التي نسخت عنه، وتُدُووِلت، وننبه على أن الخلاف في عدد الآيات ليس كبيرا وكل ما تناوله دار في نطاق ضيق من نقص آية أو آيتين في بعض السور أو زيادة آية أو آيتين في بعض آخر، مثل وصل بعضهم كلمات: "طسم وطس" في سورة الشعراء والنمل والقصص و"ألم" في سورة العنكبوت وغيرها و"ألر" في سورة يونس وغيرها و"حم" في سورة فصلت وغيرها، وعدها موصولة مع ما بعدها أو مفصولة عنه، فتكون آية عند من عدّها مفصولة، ولا تكون كذلك عند من عدّها موصولة ومثل عدّ البسملة آية في سورة الفاتحة وعدم عدها وعد ﴿صِرَاطَ الَذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِينَ﴾ في سورة الفاتحة آية عند بعضهم أو آيتين عند بعض آخر.

ونقول في صدد ترتيب نزول السور إننا اطلعنا على عدة ترتيبات، منها ترتيب المصحف الذي اعتدناه ونعني "مصحف قدور أو غلي" ومنها ترتيب للسيوطي استند سفيه إلى ما اعتمده في الروايات، ومنها ترتيب في تفسير الخازن وآخر في تفسير الطبري، وثلاثة أخرى أوردها السيوطي في الإتقان منسوبة إلى الحسين وعكرمة وابن عباس وجابر، وبين هذه الترتيبات تخالف يسير أو كبير، مع التنبيه على أن مضامين بعض السور المكية والمدنية تسوغ

التوقف في ترتيبها الوارد في هذه الترتيبات وتحمل على القول أنها لا تمثل الحقيقة تمثيلا صادقا، وأنه ليس هناك ترتيب يثبت على النقد والتمحيص بكامله، أو يستند إلى إسناد وثيقة متصلة بالعهد النبوي، فهناك روايات عديدة مختلفة في صفات بعض السور، وبينما يسلك بعضهم سورا في سلك السور المكية أو بالعكس مثل سور الرعد والحج والرحمن والإنسان والزلزلة والفلق والناس والإخلاص والكوثر وقريش والعصر والعاديات والقدر والمطففون والفاتحة التي تسلكها بعض الروايات في السلك المدني، بينما تسلكها روايات أخرى في السلك المكي، ومثل سور الحديد والصف والتغابن والبينة التي تسلكها بعض الروايات في السلك المدني وفضلا عن ذلك فإن في القول بترتيب نزول سور القرآن تجوز خاصة بالنسبة لبعض السور المدنية حيث تلهم مضامينها أن بعض فصول سور متقدمة في روايات الترتيب قد نزلت بعد بعض فصول سور متأخرة فيه، وأن فصول هذه السور قد الفت تأليفا متأخرا عن نزولها وقتا ما مما ذكرنا بعض نماذجه ونبهنا عليه في بحث سابق.

وكل ما يمكن أن يقال في مثل هذه السور أن وضعها في ترتيب النزول كسور تامة بعد سورة تامة حقيقة أو رواية، إنما جاء من أن فصلها الأول أو فصولها الأولى قد نزلت بعد الفصل الأول أو الفصول الأولى من السورة التي قبلها.

ولقد أجمعت الروايات مثلا على أن سور العلق والقلم والمزمل والمدثر هي أوائل السور نزولا على اختلاف في الأولية بينها وعند التدقيق تراءى لنا أن هذه الروايات محل نظر، فالآيات الأولى من سورة القلم احتوت آية: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: 15]، والآيات الأولى من سورة المزمل احتوت آية: ﴿وَرَتِّلْ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: 04]، والآيات الأولى من سورة المدثر احتوت آية: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: 25]،

والآيات التي اعقبت الآيات الخمس الأولى من سورة العلق احتوت آيات فيها وصف الموقف لبعض الطغاة من دعوة النبي وصلاته بالإضافة إلى حكاية السور الثلاث الأولى مواقف مواقف بعض الكافرين والمكذبين وجد لهم ومكابرتهم، وإلى حملات عليهم فيها بسبب ذلك، فهذا كله يلهم بقوة أنه ينبغي أن يكون قد نزل قبل هذه السور وبعض آيات سورة العلق الخمس الأولى على الأقل قرآن يصح أن يرتل وأن يقال عنه أساطير الأولين وقول البشر وفيه دعوة وإنذار عامان وقد تلي على الناس ودعوا إلى اللّه به فوقف الكفار منه موقف الجاحد المعاند فنزلت بقية سورة العلق والسور الثلاث الأخرى تحكي مواقفهم وترد عليهم، ومن أجل هذا ضمنا أن تكون سورة الفاتحة والأعلى والشمس والعصر والليل وأمثالها مما لا يحتوي إلا الدعوة والإنذار والأهداف بصورة عامة هي السابقة بالنزول بعد آيات العلق الخمس الأولى إن لم يكن هناك قرآن نزل ثم رفع يحتوي ذلك، ويمكن إيراد أمثلة متعددة أخرى كثيرة أيضا.

- **تمييز الأسلوب المكي والأسلوب المدني**: ونستطرد فنقول إن أسلوب القرآن يساعد بنطاق ضيق على التمييز بين السور المكية والسور المدنية بل الآيات المكية والآيات المدنية أيضا فالسور المكية أولا تنحو في الأغلب نحو التسجيع والتوازن وثانيا: تتكشف فيها الدعوة إلى اللّه وإثبات استحقاقه وحده للخضوع والعبادة ومحاربة الشرك وكل ما يتصل به وتعنيف الكفار وتقريعهم بسببه، وثالثا: إن أسلوبها المتصل بالدعوة إلى المكارم الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية والتحذير من الآثام والفواحش أسلوب دعوة وحض وتشويق وتنديد وتنويه، ورابعا: إن القصص ومشاهد الآخرة والحديث عن الملائكة والجن وحكاية أقوال الكفار وجدلهم وافتراءاتهم ونسبهم المختلفة للنبي قد كثرت وتكررت، وخامسا: إن وحدة الموضوع في السور الطويلة

والمتوسطة فضلا عن القصيرة ملموحة في كل سورة منها تقريبا، وسادسا: إن تلاحق الفصول والسياق جدلا وحكاية وإنذار وتبشيرا ووعدا ووعيدا وتدعيما وتمثيلا وتذكيرا وقصصا وتطمينا وتوجيها وتلقينا وبرهنة ملموح كذلك في كل سورة منها تقريبا، وفي السور المكية تبرز مبادئ الدعوة القرآنية قوية واضحة، وتبرز خصوصيات القرآن ومميزاته الأسلوبية والموضوعية بالنسبة إلى الكتب السماوية الأخرى قوية واضحة كذلك، ومن مميزات الأسلوب المكي اللهجة الخطابية القوية النافذة إلى الأعماق والقارعة للأسماع والقلوب، واللهجة التي يذكر بها اليهود خاصة حيث خلت من التقريع والتعنيف والجدل والأخذ والرد، وتلك الصور الجحودية والإزعاجية والتشكيكية والدسية الواردة عنهم في القرآن المدني، واللهجة المحبّبة الاستشهادية التي يذكر بها الكتابيون وألو العلم كأنما هم حزب المسلمين والدعوة النبوية، والأسلوب المكي يغلب فيه وصايا الحبر والتظمين والتسكين وعدم المبالاة بمواقف الكفار كما انه خلا من الحض على الجهاد وقائع الجهاد وخلا كذلك يمن ذكر المنافقين ومواقفهم ودسائسهم والحملات القاصمة عليهم وواضح أن هذا كله متصل بظروف العهد المكي من السيرة النبوية مما نبهنا عليه في سياق التفسير.

- أما القرآن المدني فالسجع فيه قليل بل نادر، وطول نفس الآيات غالب، وتقل فيه فصول القصص ووصف مشاهد الآخرة والجن والملائكة والجدل ووصف مشاهد الكون أو تقصر ويكتفي من ذاك بالتذكير والإشارات الخاطفة، وتصطبغ فيه المبادئ والتكاليف التعبدية والأخلاقية والاجتماعية والقضائية والسلوكية بصبغة التقنين والتقعيد، وفيه تشريع الجهاد، ووقائعه وظروفها، وفيه إبطال عادات وتقاليد قديمة وإقرار عادات وتقاليد قديمة أخرى مع الإصلاح والتهذيب، وإنشاء عادات وتقاليد جديدة

في سبيل الإصلاح الأخلاقي والإجتماعي، وفيه صور النفاق والمنافقين ومواقفهم، ولهجته عن اليهود لهجة شديدة في الدعوة والتعنيف والتنديد وفيه سور عن مواقفهم وأحوالهم، وفيه الاستفتاءات والأسئلة القضائية والاجتماعية والأخلاقية والأسروية وأجوبتها التشريعية وواضح أن هذا كله متسق أيضا مع ظروف العهد المدني من السرية النبوية مما نبهنا عليه سابقا وعلى ضوء هذه المميزات ومع استلهام المضمون والسياق أمكننا ترجيح مكية سور الرعد والحج والرحمن والإنسان والزلزلة التي يذكر كثير من المصاحف مدنيتها وأمكننا كذلك ترجيح مكية ومدنية السور القصيرة الأخرى التي اختلفت الروايات فيها وترجيح مكية آيات ذكرت الروايات أنها مكية في سور مدنية مما نبهنا عليه سالفا.

- الشكل والنقط:

و – سادسا: شكل المصاحف ونقطها:

من الثابت المسلم به أن النقط والشكل على الوجه المستعمل في المصاحف المتداولة قد اخترعا بعد النبي وفي أخريات دور الخلفاء الراشدين أو أواسط دور الأمويين على اختلاف في البدء والتطور، ولذلك فإنهما محدثان وليس لهما أصل في المصحف العثماني وما قبله جزما.

وقد مست الحاجة إلى إدخالهما على المصحف لضبط القرآن وتيسير قراءته صحيحة وعدم ترك المجال للالتباس ولا سيما أن المسلمين قد انتشروا في بقاع الأرض أكثر من ذي قبل ودخل الاسلام أمم وطوائف غير عربية، وصارت اللغة العربية تعلم تعليما و لم تبق سليقية، وقد كان من شأن بقاء القرآن بدون اعجام (تنقيط) خاصة أن يلتبس على قارئه في المصحف قراءة الحروف المتشابهة الشكل التي لا يميزها عن بعضها إلا النقط مثل: ب، ت، ث، ج، ح، خ، د، ذ، ر، ز، س، ش، ص، ض، ط، ظ، ع، غ، كما كان

من شأن بقائه بدون شكل أن يلتبس على القارئ غير العربي سليقة تمييز الكلمات المتشابهة الشكل التي لا يميزها عن بعضها الآن إلا الشكل أو كثرة الممارسة وحسب فهم المعنى وتمييز أواخر الكلمات ولا سيما حينما يتأخر الفاعل ويتقدم المفعول مثلا، ومما لا ريب فيه إن إدخالها على الخط العربي عامة وعلى المصحف خاصة خطوة خطيرة جدا في سبيل الإتقان والإحسان والفهم والتمييز، والمرجح أنهما لم يخترعا كاملين، وأنهما سارا سيرا تطوريا حتى بلغا مبلغهما التام في القرنين الثاني والثالث الهجريين.

- علامات الوقف والوصل

ز - سابعا: علامات الوقف والوصل والأداء:

إن ما قررناه في الفقرة السابقة يصح على علامات الوقف والوصل والمد والقصر والسكون فوق الكلمات والحروف القرآنية في المصحف العثماني، من حيث كونها محدثة وليست أصيلة في المصحف العثماني ومن حيث قصد ضبط قراءة القرآن وإتقان أداء كلماته وحروفه مع التنبيه على أنها دون خطوة الشكل والنقط خطوة أولا وأنها قد أحدثت بعدهما على الأرجح ثانيا، وننبه كذلك على أنها ما نقصده هو وضع العلامات وهذا لا يقتضي طبعا أن لا يكون النّبي عليه السلام وأصحابه قد عنوا بالوقوف على ما ينبغي الوقوف عليه، ووصل ما ينبغي وصله والسكوت عندما يجب السكوت، ومدها يقتضي مده وقصرها يحسن قصره...الخ، فلا يصح أن يشك في أن كل هذا قد كان، وأنه متصل بطبيعة النطق الخطابي والتقرير التي هي من طبيعة التلاوة القرآنية ومقتضيات أداء معني القرآن مما لا يمكن إلا أن يكون سواء أفي تلاوته من النبي على الناس أم تلاوته من قبل الصحابة، وسواء أكان ذلك في الصلاة أم في مجال التلاوة والوعظ والبيان، فضلا على أن طبيعة الخطاب والتلاوة بوجه عام تقتضي ذلك، والراجح أن

الأمر القرآني ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: 04]، وهو من أوليات القرآن نزولا هو في صدر ذلك أو مما استهدفه، وتلاوة القرآن على الأداء المعروف متصلة فيما يعتقد بالسماع خلفا عن سلف حتى تتصل بالعهد النبوي، وقد جرى الأمر على هذا بالتواتر الفعلي السماعي الذي لم ينقطع من لدن النبي عليه السلام، ومما لا ريب فيه أن العلامات وحدها لو لم يكن هذا النقل السماعي المتواتر لا تجزي وحدها ولا تجعل قارئ القرآن يؤدي دلالتها على وجهها دون تعليم وسماع، والمعقول أن وضع العلامات كان من قبل أعلام القراء والرواة حينما رأوا أن الحاجة أخذت تمس إلى ذلك وأن بقاء القرآن بدونها قد يؤدي إلى إساءة التلاوة والأداء والانحراف عن الأسلوب الصحيح القويم المتناسب مع طبيعة المفاهيم القرآنية والذي كان يرويه القراء والرواة راو عن راو... وقارئ عن قارئ على أن المعقول أيضا أن وضعها هو من قبيل التذكير بدلالتها التي كانت تتلقى سماعا، والراجح أن هذا قد كان كذلك في القرنين الثاني والثالث الهجريين.

- رسم المصحف العثماني:

ح – ثامنا: رسم المصحف العثماني:

أن أكثر العلماء وأئمة القراء قرّروا وجوب الاحتفاظ في كتابة القرآن بالرسم العثماني، ومنهم من كره كتابته برسم آخر ومنهم من حرسها، ولم نطلع على أقوال وأحاديث موثوقة متصلة بأصحاب رسول اللّه في هذا الشأن، ولذلك يصح أن نقول إنها أقوال اجتهادية ويبدو أن هذا التشديد متصل بروايات القراءات السبع أو العشر، وخاصة بما يتصل بالصرف والنحو وأجسام الكلمات مثل: ﴿مَلِكِ وَمالِكِ﴾ و﴿مَسْجِدٍ ومساجِدَ﴾ و﴿يفعلون وتفعلون﴾ و﴿فُتّحت وفتحت﴾ و﴿أرجلَكم وأرجلِكم﴾ وتبيّنوا وتّبتوا ...الخ، مما يقع في وحدة

الرسم، ومتصل كذلك بالقول إن هذه القراءات صحيحة كلها لأنها تقع في نطاق وحدة الرسم من ناحية ومتصل بالسماع المتسلسل الواصل إلى قراء الصحابة الذين تلقوا القرآن عن النبي من ناحية أخرى بحيث يورد أن شأن كتابة القرآن بغير الرسم العثماني والخطوط في الأدلة التالية:

أن تحول دون قراءة الكلمات القرآنية بقراءات مختلفة يحتملها الرسم العثماني ومتصلة بقراء الصحابة، فيكون في ذلك تحكم في تصويب قراءة دون قراءة وأبطال قراءة دون قراءة أو وسيلة مؤدية إليها، وان هذا هو ما تحرز منه العلماء والقراء في مختلف العصور تورعا وتدينا وزيادة في التحري في تلاوة القرآن تلاوة قويمة صحيحة متصلة بالنبي والذين سمعوا منه وتلقو عنه، ومهما يبدو من وجاهة هذا القول ونتائجه وخاصة فوائده التي من أهمها أن احتفظت المصاحف خلال أربعة عشر قرنا برسم واحد قد كتب وفاق لما كان يكتب في عهد النبي وبإملائه وحفظ القرآن بذلك من التحريف والتشويه، ومن الخلافات التي لا بد من أن تنشأ بسبب تطور الخطوط من وقت لآخر وتبدلها في أدوار لم يكن فيها مطابع ولا تصوير شمس ومنعت تكرّر المأساة التي أفزعت عثمان وحملته على توحيد هجاء القرآن وجعل المصاحف بهجاء واحد ننسخ عن الأصل الذي أمر بنسخه وتنتشر في مشارق الأرض ومغاربها موحدة، فإننا نعتقد أنه ليس من شأنه أن يمنع جواز كتابة المصحف اليوم بالخط الدارج على شرط مراعاة قراءة من القراءات المشهورة المتصلة بأحد أئمة قراء الصحابة والنص على ذلك في مقدمة المصحف لأنه لا يوجد نص ثابت متصل بالنبي وأصحابه يمنع ذلك فيما اطلعنا عليه، ولأننا نعتقد أن في هذا تيسيرا واجبا لتعليم القرآن وتعلمه وحسب ضبطه واتقانه فبين الرسم العثماني والرسم الدارج فروق غير يسيرة فضلا عن ما بين رسوم القرآن نفسها من تنافس مما سوق نشير

إليه بعد قليل مؤد في نفس الوقت إلى زيادة التعقيد والتعسير ومن العسير أن يتعلم القارئ هذا الرسم بالإضافة إلى الرسم الدارج الذي ألفه في كتابته وكتبه وقراءاته الأخرى،وبالإضافة إلى ذلك فإن هناك مسلمين وغير مسلمين لا يتيسر لهم تلقى القرآن من قراء مجازين، أو قراء تلقوا أو قرؤوا أو سمعوا من قراء مجازين مما يصعب اتقان تلاوة القرآن برسمه العثماني بدونه والمصاحف في متناول جميع الناس على اختلاف الملل والأجناس، ففي كتابته بالرسم الدارج منع لمغبة الغلط في القراءة والتشويه وسوء الفهم والتفسير، وتيسير واجب لنشر القرآن الذي هو من أهم واجبات المسلمين أيضا، ولا سيما أن الرسم العثماني محفوظ لن يبيد بما يوجد منه من ملايين النسخ المطبوعة وغير المطبوعة والرسوم الشمسية ما فيه الضمانة على بقائه المرجع والإمام أبد الدهر، وقد رأينا لإمام المفسر الكبير ابن كثير في كتابة فضائل القرآن وهو من علماء القرن السادس قولا يبيح به كتابة المصحف غير الرسم العثماني وفي هذا توكيد وتوثيق لوجهة النظر التي نقرّرها.

هذا أولا، وثانيا أن الذي نعتقده أن رسم المصحف العثماني لم يكن ليكون محتملا للقراءات السبع أو العشر، وليس هو توقيفيا عن النبي عليه السلام كما يظن أو يقول البعض، فليس هناك حديث بل وغير وثيق متصل بالنبي أو أصحابه المعروفين يؤيد ذلك وإنما هو الطريقة الدارجة للكتابة في ذلك العصر، ولم يكن النبي يقرأ ويكتب، وإنما كان يملي ما يوحي إليه به على كتابه فيكتبون وفق ما يعرفونه من طريقة الكتابة، وليس من سبيل إلى غير ذلك ومادامت طريقة الكتابة قد تطورت فإن تسويغ كتابة المصحف وفق الطريقة الدارجة طبيعي أيضا وخاصة بعد أن صار الاحتفاظ بالرسم العثماني ليكون المرجع والإمام مطبوعا ومحفوظا ومصورا كما قلنا ممكنا إلى ما شاء الله.

أما التناقص أو التباين في رسم المصحف العثماني نفسه فإنه في الحقيقة يبعث على العجب والحيرة، حيث وردت كلمات واحدة أو متقاربة في سور مختلفة بل وأحيانا في سورة واحدة مختلفة الرسم في حين أن كثيرا منها متماثل في مواقع الصرف والنحو وإعراب الأواخر والمعنى كما ترى في الثبت التالي مثلا:

1 – ﴿لا اذبحنه = لا أعذبنه﴾،
2 – ﴿بنبأ = بنبأى﴾.
3 – ﴿سموات = سماوات﴾،
4 – ﴿بنت = بنات﴾.
5 – ﴿للشيء = لشّاي﴾،
6 – ﴿ابن أم = ابنؤم﴾.
7 – ﴿احسانا = احسنا﴾،
8 – ﴿اصلاح = اصلح﴾.
9 – ﴿جزاءا = جزوأ﴾،
10 – ﴿نعمت = نعمة﴾.
11 – ﴿رحمة = رحمت﴾،
12 – ﴿قرّة = قرّت﴾.
13 – ﴿امرأة = امرأت﴾،
14 – ﴿سنة = سنت﴾.
15 – ﴿جنّة = جنّت﴾،
16 – ﴿لعنة = لعنت﴾.
17 – ﴿بقيّة = بقيّت﴾،
18 – ﴿بسطة = بسطت﴾.
19 – ﴿الأيكة = لايكة﴾، الخ...

فهذه المباينات تسوغ القول: أن أول ما نسخ وكتب برسم واحد من المصاحف العثمانية مصحف واحد من المصاحف العثمانية مصحف واحد كتبه كاتب أملاه عليه قارئ فكتب بعضهم الكلمات في مواضع برسم وكتب بعضهم نفس الكلمات في مواضع برسم آخر، ثم نسخت المصاحف الأخرى العثمانية التي أرسلت إلى الأقطار عن هذا المصحف حرفيا وأن العلم بالكتابة بين الصحابة لم يكن موحدا وأن الكتابة والإملاء لم يكن

متقنا، حتى لو فرضنا أن المصاحف العثمانية كتبت جميعها معا من محل واحد فلا بد من أن نفرض أنه تعاقب على كتابتها آخرون، ولعله كان في الصحف والمصاحف المتداولة في أيدي المسلمين إذ ذاك أخطاء ومباينات أكثر وأفدح في الكتابة والإملاء مما أفزع عثمان وكبار الصحابة وحملهم على توحيد الرسم واجتهدوا اجتهادهم فلم يستطيعوا أن يتخلصوا من بعض الأخطاء والمباينات أن جاءت غير ذات بال من حيث الجوهر والمعنى، وإذا كان مثل هذه الأخطاء تقع اليوم والمدارس منتشرة والناشئة تتعلم فيها بطريقة موحدة بسبب تفاوت الاتقان والعناية والمران...

فوقوعها في ذلك العصر الذي لم تكن الكتابة فيه قد وصلت إلى تمامها من النضج من باب أولى، وقد فرضنا أن يكون المنسوخ في أول الأمر من المصاحف العثمانية مصحفا واحدا تعاقب عليه أكثر من كاتب ثم نسخت عنه المصاحف الأخرى لان هذا الفرض هو الذي يستقيم وينسق مع وجود تلك المباينات إذ لو نسخت المصاحف جميعها مرة واحدة مكن قبل عدد من الكتاب لكان تعذر فرض اتحادهم في هذه المباينات التي لا ترجع إلى سبب إملائي فني كما أن ما فرضناه هو المعقول الذي تطمئن به النفس ويتفق مع طبيعة الأمر على ما هو المتبادر، ولقد علق ابن خلدون على هذه الظاهرة فقال: "كان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة، وانظر ما وقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم، وكانت غير محكمة في الإجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركا بما رسمه أصحاب رسول الله وخير الخلق بعده كما يقتفي لهذا العهد خط ولي أو عالم تبركا ويتبع رسمه خطأ أو صوابا.

ونحن نعرف أن لعلماء القراءات تخريجات لهذا التباين، ولكن المدقق يجد فيها تكلفا وتجاوزا كبيرين لا يبعثان اطمئنانا ولا يوجبان اقتناعا ولا سيما أن في هذا التباين كما قلنا أمثلة لا تختلف عن بعضها نحوا وصرفا ونظما وموقع جملة ومعنى.

وهناك مسالة أخرى في صدد رسم المصحف العثماني يثيرها حديثان أحدهما مروي عن عائشة، ووصف بأنه بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وقد روى عن عروة قال: سألت عائشة عن لحن القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ [طه: 63]، ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [النساء: 162]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابُونَ﴾ [المائدة: 69].

فقالت يا ابن أختي: "هذا من عمل الكتاب أخطأوا في الكتاب" وثانيهما عن عكرمة وغيره جاء فيه: "أنه لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان فوجد فيها حروفا من اللحن فقال: لا تغيروها فإن العرب ستغيرها أو قال: ستعربها... بألسنتها" وقد أنكر بعض العلماء الحديث المنسوب إلى عثمان وقالوا: إن اسناده ضعيف مضطرب منقطع، ون عثمان جعل للناس إماما يقتدون به فلا يصح أن يكون قد رأى فيه لحنا وتركه لتقيمه العرب بألسنتها وكان أولى الناس بتصحيحه كما خرّج علماء آخرون ما ظن انه لحن تخريجا نحويا سليما، ومما قاله الزمخشري في صدد: والمقيمين الصّلاة "لا تلتفت إلى ما زعموا من وقوعه لحنا في خط المصحف وربما التفت إليه من لم ينظر في الكتاب ولم يعرف مذاهب العرب ومالهم في النصب على الاختصاص من الافتنان وعبر عليه أن السابقين الأولين الذين مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كانوا أبعد همة في الغيرة على الإسلام ودب المطاعن عنه من أن يتركوا في كتاب اللّه ثلمة ليسدها من بعهدهم، وخرقا يرفوه من يلحق بهم".

ومع ما في كلام الزمخشري من قوة خطابية فإننا لا نرى من المستحيل ولا مما لا يتسق مع طبائع الأمور، ولا مما ينتقص من قيمة وصحة بل وقدسية المصحف أن يخطئ ناسخ المصحف الأول من المصاحف العثمانية في كتابة بعض الكلمات حين جاءت مخالفة للقواعد اللغوية القرآنية، وقد رأينا فيما اطلعنا عليه من المصاحف المخطوطة أخطاء عديدة وقع فيها النساخ ومنهم خطاطون بارعون لا يتهمون بقصور في الإملاء منها ما ترك على حاله، ومنها ما أشطب عليه وكتب صحيحه فوقه أو بعده أو على الهامش،، ومن هذه الأخطاء ما هو أكثر من كلمة أو جزء من كلمة، وكثيرا ما وقع هذا معنا مع أننا كنا نحرص أن نكتب عن المصحف دون حافظتنا، ولم نطلع على إنكار لحديث عائشة سواءٌ في سنده أو في متنه مثل ما كان بالنسبة لحديث عثمان بل رأينا في الإتقان تعليقا يؤيد صحته ويحاول تعليل ما جاء فيه محاولة غير شافية ونحن لا نرى في الحديث شيئا شاذا وغير متسق مع طبيعة الأمور على ما نبهنا عليه آنفا.

- القراءات:

- تاسعا: القراءات المشهورة:

إن القراءات المشهورة سبع تنسب إلى سبعة أئمة من القراء هم: نافع بن أبي رويم في المدينة، وعبد الله بن كثير في مكة، وأبو عمرو بن العلاء في البصرة، وعبد الله بن عامر في الشام، وعاصم بن أبي النجود وحمزة بن حبيب الزيات وعلي الكسائي في الكوفة، ويضم إليهم أحيانا أبو جعفر بن يزيد في المدينة، ويعقوب الحضرمي في البصرة، وخلف البزار في الكوفة، فيبلغون عشرة وتبلغ القراءات عشرا، وأربعة منهم تابعون يروي أنهم تلقوا قراءاتهم عن قراء من الصحابة والباقون تابعوا تابعين تلقوا عن تابعين تلقوا

عن قراء من الصحابة وكل منهم يروي قراءته عن قارئ صحابي معروف كما أن لكل منهم ولكل من رواتهم رواه إلى أن وصل الدور إلى عهد التدوين فدونت القراءات وخلافياتها في تعاريف عامة من جهة وفي كل سورة لحدتها من جهة أخرى.

وتدور هذه الخلافيات على الأغلب في النطاق التالي: 1 - مخارج الحروف كالترقيق والتفخيم والنيل إلى المخارج المجاورة كنطق الصراط بإمالة الصاد إلى الزاي، 2 — والأداء كالمد والقصر والوقف والوصل والتسكين والإمالة والإشمام، 3 — والرسم كالتشديد مثل: ﴿يُغْشَى - يُغَشَّى﴾ و﴿فُتِحَتْ - فُتِّحَتْ﴾، والإدغام والإظهار مثل: ﴿تَذكُرُونَ - وتَتَذَكَّرُونَ﴾ والهمز ومد الألف مثل: ﴿مَلِك - مَالِك﴾، و﴿مَسْجِد - وَمَسَاجِد﴾ لتحمل الرسم النطقين، 4 — والتنقيط والحركات النحوية مثل: ﴿يَفْعَلُونَ - وتَفْعَلُونَ﴾، و﴿أَرْجُلَكُم - وأَرْجُلِكُمْ﴾، مثلا:

وقد وضع علماء القراء شروطا أربعة لصحة القراءة الخلافية وهي: 1 — التواتر بحيث لا تصح قراءة غير القراءة المتواترة والمشهورة، 2 — وموافقة العربية بوجه ما بحيث لا تصح قراءة خلافية لا تتفق مع قواعد اللغة، 3 — ورسم المصحف العثماني بحيث لا تصح قراءة خلافية مغايرة الرسم المذكور، 4 — وصحة سند القراءة بحيث لا تصح قراءة خلافية لا تستند إلى سند وثيق يتصل بأحد قراء الصحابة واجتماع الشروط الأربعة شرط لازم بحيث لا تصح قراءة خلافية لا تجتمع فيها.

على أن هناك ما يمكن ملاحظته في صدد خلافيات القراءات المذكورة، فالمقول المشروط أن أئمة القراء قد أخذوا قراءاتهم سماعا عن قراء من الصحابة وان قراء الصحابة قد اخذوا قراءاتهم سماعا عن النبي ومعقول أن

يكون قراء الصحابة مختلفين في القراءة الناشئة عن النطق بالحروف وأدائها من ترقيق وتفخيم ومد وقصر وإمالة وإشمام ووقف ووصل وتسكين وتنوين حتى ولو قرءوا قراءاتهم عليه - النبي عليه السلام - وأجازوها لهم على اختلافها في ذلك وأن يكون يسمعها منهم غيرهم من الصحابة والتابعين، ولكن مما يدعو إلى التوقف والنظر أن يكونوا مختلفين في القراءة الناشئة عن الرسم والتنقيط من تشديد وتخفيف وإظهار وإدغام وقراءة المضارع بالغائب أو المخاطب وقراءة يبعض الكلمات منصوبة حينا ومجرورة حينا آخر مثل: ﴿أَرْجُلَكُم - وأَرْجُلِكُم﴾ ومفردة حينا وجمعا حينا مثل: ﴿مَسْجِد ومَسَاجِد﴾ واسم فاعل حينا واسم عادي مثل: ﴿مَلِكُ ومَالِك﴾ ونحو ذلك إلا مع فرض أنهم كانوا يقرؤون من المصاحف ولم يسمعوها من النبي، وأن هذا كان شأن أئمة القراء التابعين وتابعي التابعين فالنّبي لم يكن يتلو من مصحف وكان ما يبلغه وحيا وإذا كان يجنح إلى التيسير كما يدل عليه أحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف مما سوف نبحث فيه في مناسبة أخرى.

فإن هذا منه على ما نعتقد إنما كان بقصد التسهيل على الناس في مخارج الحروف والأداء، لأن هذا متصل بتكوين آلة النطق البشرية ومتصل كذلك بعامة إخراج الحروف وأدائها تبعا لاختلاف اللهجات أو المنازل العالية والواطئة والحارة والباردة والتي لا معدي من التسهيل فيها وحكمتها واضحة قائمة، وليس في هذا التسهيل تبديل وتغيير في كلمات القرآن وحروفه ونحوه وصرفه، إذ أنه ليس مما يحتمل أن يكون النبي قرأ مرة ﴿يَفْعَلُونَ﴾ وأخرى ﴿تَفْعَلُونَ﴾، ومرة ﴿تُغْفِرُ﴾ وأخرى ﴿يُغْفَر﴾، ومرة ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ وأخرى ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾، ومرة ﴿يَيْأَس﴾ وأخرى ﴿يَتَبَيَّنْ﴾، فضلا عن عدم احتمال تبديله الكلمات بغيرها ولو في معناها مما يروي في غير نطاق رسم المصحف العثماني ولا سيما أن الخلافيات في هذه هي أكثر الخلافيات حتى لقد رأينا

الزمخشري في كشافة يروي أمثلة كثيرة جدا منها، ولعله يستقيم أن يفرض أيضا أن القراء التابعين كانوا يقرؤون على قراء الصحابة من المصحف قراءات مختلفة ناشئة عن تلك الأسباب والعلل الطبيعية، وأن قراء كانوا يحبذونها استئناسا بما كان من تساهل النبي وأمره بالتيسير في قراءة القرآن.

أما والحالة على ما ذكرنا فإن مما يخطر للبال سؤال عما إذا كان هناك ضرورة دينية لهذه القراءات المتعددة المختلفة بل والمتباينة حينا في قطر واحد، والذي نراه أنه ليس هناك، من ضرورة دينية لذلك، وخاصة بالنسبة لجمهور المسلمين، وأنه يكفيهم أن يقرؤوا القرآن بقراءة واحدة من القراءات المأثورة من مصحف كتب بالرسم الدارج بينهم فيه بعض العلامات الضرورية للوقف والوصل والمد والسكوت ونحو ذلك مما تقتضيه هذه القراءات المأثورة بحيث يكون من الميسور للمسلمين وغيرهم والمصاحف في متناول الجميع، أن يقرؤوا القرآن صحيحا بسهولة ويسر، فلا تكون قراءتهم متوقفة دائما على التلقي، لأن ذلك غير ميسور دائما ونعتقد أنه إذا لم ييسر هذا على هذا الوجه وقع الحرج من سوء التلاوة وسوء الأداء وتحريف الألفاظ والمعاني.

وليس من بأس إلى هذا بل لعله مستحب أن يكون هناك فئة من الهواة بل فئة تنفق عليها الحكومات الإسلامية أو المؤسسات الدينية لتظل تتدارس القراءات ويتداولها القراء جيلا بعد جيل فإن فائدة ذلك بمثابة الفائدة المستحبة التي نوهنا بها في الاحتفاظ برسم المصحف العثماني مطبوعا ومخطوطا ومصورا فيستمر ذاك كما يستمر هذا قائما أبدا بين جماعة المسلمين في كل قطر من أقطارهم مع ملاحظة نراها هامة وهي وجوب عدم الغلو في أداء هذه القراءات وخاصة الغن والمط والترديد مما يخرج القرآن عن قدسيته، ويضعف نفوذه الروحي ومما يكاد يبدو من القراء أنه بسبيل التعالم والانتفاخ أكثر منه بسبيل الرواية قراءات يغير القراءة الدارجة العامة في قطرهم.

- أهم الآداب التي تلزم قارئ القرآن أن يتأدب بها:

- يستحب أن يقرأ وهو على طهارة: فإن قرأ محدثا جاز بإجماع المسلمين[1]، قال الآجرى[2]: وأحب لمن أراد قراءة القرآن من ليل أو نهار أن يتطهر وأن يستاك، وذلك تعظيم للقرآن لأنه يتلو كلام الرب عزّ وجل.

- وينبغي لمن أراد القراءة أن ينظف فاه بالسواك وغيره[3].

- يستحب للقارئ في غير الصلاة أن يستقبل القبلة، فيجلس متخشعا بسكينة ووقار، مطرقا رأسه، ويكون جلوسه وحده في تحسين أدبه وخضوعه كجلوسه بين يدي معلمه، فهذا هو الأكمل، ولو قرأ قائما، أو مضطجعا، أو في فراشه، أو على غير ذلك من الأحوال جاز، وله اجر ولكن بدون الأول[4].

تجويد الحروف: التجويد هو إعطاء الحروف حقها من الصفات اللازمة لها، ومستحقها من الأحكام التي تنشأ عن تلك الصفات.

ولقد قال ابن الجزري بوجوب تجويد الحروف باعتباره فرض عين على من يريد قراءة القرآن معللا بأنه نزل على نبينا ﷺ مجودا كذلك بالتواتر فقال:

والأخلاق بالتجويد حتم لازم *** مـن لم يجـود القـرآن آثم

لأنه به الإله أنزلا *** وهكذا منه إلينا وصلا

اجتناب الضحك واللغط خلال القراءة: ومما يعتني به ويتأكد الأمر به احترام القرآن من أمور قد يتساهل فيها بعض الغافلين القارئين مجتمعين، فمن ذلك: اجتناب الضحك واللغط والحديث في خلال القراءة، إلا كلاما، يضطر إليه، ومن ذلك: العبث باليد وغيرها، فإنه يناجي ربه سبحانه وتعالى فلا يعبث بين يديه[5].

---

(1) – انظر التبيان ص: 39، وآداب تلاوة القرآن ص: 97، 98 ...

(2) – أخلاق حملة القرآن ص: 73.

(3) – انظر التبيان ص: 38، والبرهان 1/ 459، وآداب تلاوة القرآن ص: 98 – 99،.والتذكار ص: 172، والمنهاج: 2/210.

(4) – انظر التبيان ص: 50 — 51، وآداب تلاوة القرآن ص: 114.

(5) – انظر التذكار ص: 174.

- اختيار المكان النظيف الذي يليق بمقام القرآن الكريم لقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21].

- الخشوع والبكاء أو التباكي عند قراءة القرآن أو سماعه لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُومِنُونَ الذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: 2].

- أن يبدأ قراءته بالاستعاذة باللّه من الشيطان الرجيم، ثم بالبسملة بأن يتبع بقوله: ﴿بسم اللّه الرحمن الرحيم﴾ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 98 — 100].

- يسن الترتيل في القراءة وعدم الإسراع لأنه أدعى لفهم القرآن وتدبر معانيه لقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: 5].

والمراد بالترتيل هنا: إعطاء الحروف والكلمات والألفاظ حقها من المد والادغام.

- تدبر القرآن وتفهمه لأن المقصود من القراءة هو العمل بها ولا يتحقق ذلك إلا بتدبر ما فيها، لقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُواْ ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ [ص: 29].

- أن يتأثر بآيات القرآن وعدا ووعيدا لقوله تعالى في شأن المؤمنين لصادقين: ﴿قُلْ امِنُواْ بِهِ أَوْلاَ تُؤمِنُواْ إِنَّ الذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلاَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً وَيَخِرُّونَ لِلاَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:107- 109].

ولحديث ابن مسعود رضي اللّه عنه قال: قال لي رسول اللّه ﷺ: "يا عبد اللّه أسمعني شيئا من كتاب اللّه"، فقلت له: يا رسول اللّه أأقرأ عليك الكتاب وعليك أنزل؟ قال: "نعم إني أحب أن أسمعه من غيري"، فقرأت عليه آيات من سورة النساء إلى أن بلغت قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 41]، فقال ﷺ: كفى يا عبد اللّه، فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان أي تسيلان بالدموع.

- تحسين الصوت بالقراءة وتزينه لأنه أدعى لتأثيره على النفوس، فقد روي عنه ﷺ أنه قال: "زينوا القرآن بأصواتكم"، وفي رواية: "حسنوا القرآن بأصواتكم"، وفي حديث أبي موسى الأشعري وكان حسن الصوت وسمعه الرسول ﷺ يقرا فأعجبه فقال له: "لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود".

- وفي رواية أنه ﷺ قال لأبي موسى "لو رأيتني وأنا أسمع قراءتك البارحة" فقال أبو موسى الأشعري: "أما أني لو علمت بمكانك لحبرته لك تحبيرا أي لزينته وحسنته.

- مسائل تدعو الحاجة إليها:

منها أنه إذا كان يقرأ وعرض له ريح فينبغي أن يمسك عن القراءة حتى يتكامل خروجها، كذلك إذا تثأب أمسك.

- يكره قطع القراءة لمكالمة أحد.

- القراءة في المصحف أفضل من القراءة من حفظه.

التعريف بأئمة القراء:

- ترجمات موجزة لبعض مشاهير القراء[1]:

نافع المدني: هو نافع بن عبد الرحمن، أصله من اصبهان ويكنى أبا رويم وتوفي بالمدينة سنة: 196هـ.

قالون: هو عيسى بن ميناء المدني الزرقي مولى الزهريين ومعلم العربية، كنيته أبا موسى، وقالون لقبه به نافع لجودة قراءته، لان قالون بلسان الروم الجيّد وتوفي بالمدينة قريبا من سنة 220هـ.

ورش: هو عثمان بن سعيد النصري ويكنى أبا سعيد وورش لقب له لشدة بياضه، وتوفي بمصر سنة: 197هـ، وقيل أن ورش مأخوذ من الورش، وهو طعام أبيض يصنع من اللبن، وورشت الطعام أخذت منه شيئا يسيرا.

ابن كثير المكي: هو ابن كثير المكي وهو عبد اللّه ابن كثير الداوي العطار ويكنى أبا معيد وهو من التابعين وتوفي بمكة سنة: 120هـ.

عاصم الكوفي: عاصم بن أبي النجود، ويقال له ابن بهدلة وهو اسم أمة وهو من التابعين وتوفي بالكوفة سنة: 128هـ.

شعبة: بن عياش الكوفي توفي بالكوفة سنة: 194هـ.

حفص: هو حفص بن سليمان بن المغيرة توفي بحلوان في خلافة المنصور سنة: 156هـ.

الكسائي: الكسائي الكوفي علي بن حمزة النحوي وقيل له الكسائي لأنه أحرم للحج وتوفي برنبوبة حين توجه مع الرشيد إلى خراسان سنة: 189هـ.

لو ذهبنا نعدد القراء القدامى لما استطعنا حضرهم لهذا اكتفينا بذكر بعض المشاهير منهم، وهم أئمة القراء ليومنا هذا.

---

(1) - للإمام الجزري (ت: 833هـ) من تحبير التسيير.

التعريف ببعض المفسرين:

أبو البركات النسفي: المتوفى: (710هـ) هو العلامة أبو البركات عبد اللّه بن حمد ابن محمود النّسفي نسبة إلى "نسف" بلدة من بلاد ما وراء النهر "السند"، الفقيه الحنفي والمحدث والمفسر والعالم المشارك المتوفي سنة (710 - 1310هـ)، له عدة تصانيف في الفقه والأصول وعلم الكلام، منها:

"كتر الدقائق" في الفقه الحنفي، والمنار أو "منار الأنوار" في أصول الفقه، و"العمدة" في أصول الدين، و"الوافي" في الفقه، و"عمدة العقائد"، ولكن أشهرها هو كتاب "مدارك التنزيل وحقائق التأويل"، وباعتباره سنّيا ومن أعلام المحققين، فقد كتب لأثاره الشهرة والذيوع والتداول في العقائديات والأصول والتفسير، ولذلك حظيت بعض كتبه بكثير من الشروح والحواشي، وقرّر تدريسها في معاهد العلم، كالأزهر في العصور اللاحقة.

المصادر والمراجع:

- الأعلام: (67/04).

- **محمد جلال الدين: (791 - 864هـ - 1389 - 1452م).**

هو محمد بن أحمد المحلّي الشافعي جلال الدين، عالم مصري شهير، في القرن التاسع الهجري، كان ذا شخصية قوية وذكاء نادر يصعب عليه حفظ النصوص، ولا يصعب عليه التعمق في فهم عويصها، وقد استوعب معارف عصره العقلية منها والنقلية، وكان عالي الهمة، يتكسب بعمله في التجارة، ويشتغل بالتدريس والتأليف وأقبل الناس على دروسه وكتبه، لما فيها من فائدة، ولما يملكه المحلّي من أسلوب علمي وجيز ودقيق، وكان شافعيّ المذهب أشعريّ المعتقد، أصولي التفكير، دقيق التعبير وله مؤلفات كثيرة مذكورة في تراجمه المتعددة ومن أهمها شرحه لكتاب "جمع الجوامع"، في الأصول أتاج الدين السبكي (771هـ/ 1369م) وتفسير القرآن الكريم الذي وصل فيه إلى سورة (الناس)، وقد ابتدأ من سورة (الكهف) ثم فسر الفاتحة وأدركته الوفاة.

المصادر والمراجع:

- تفسير الجلالين: المحلي والسيوطي.

عبد الرحمن جلال الدين: (849هـ - 911هـ/ 1445 - 1505م).

هو عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي الشافعي الحافظ المؤلف المكثر، المشهور بالمؤلفات المتعددة في العلوم والموضوعات المختلفة كان نادرة عصره وبصره في البحث والاطلاع والحفظ والتدريس والإفتاء والتأليف، وترجمته متسعة وأخباره كثيرة.

ولما مات شيخه جلال الدين المحلّي، وترك تفسيره للقرآن على الصفة التي ذكرنا، عمد إليه بعد ست سنوات من وفاة شيخه وأكمله مبتدأ من سورة "البقرة"، منتهيا بسورة "الشعراء".

وقد أتم هذا العمل في مدة وجيزة بلغت أربعين يوما فقط، كما ذكر ذلك في نهاية تفسير سورة "الإسراء"، وكان السيوطي أنذاك لا يتجاوز الثانية والعشرين من عمره!

ولأن هذا التفسير اشترك في تأليفه عالمان كبيران يلقّب كل منهما بجلال الدين، فقد سمي بهذا الاسم "تفسير الجلالين".

المصادر والمراجع:

- تفسير جلال الدين السيوطي - الدر المنثور ببيروت (1403هـ/ 1983م).

محمد بن أحمد القرطبي: (ت 677هـ / 1224م).

بقدر ما اشتهر تفسير القرآن للقرطبي قديما وحديثا، كان مؤلفه أبو عبد اللّه محمد بن احمد القرطبي قليل الأخبار قصير الترجمة، لا نكاد نعرف عن مراحل حياته وشيوخه وتلاميذه وكتبه الأخرى إلا النزر القليل اليسير.

فهو اندلسيّ الأصل والنشأة، مصري الاستيطان والشهرة والوفاة هاجر إلى مصر في تاريخ لا نستطيع ضبطه، ويظهر أن ذلك كان بعد سقوط قرطبة في أيدي الإسبان وتوفاه اللّه ب "منية الخصيب"بصعيد مصر، سنة (671هـ / 1224م)، وضريحه شهير هناك إلى الآن.

عاش القرطبي في الأندلس، وهي تابعة لدولة الموحدين، ونشأ نشأة علمية في عصر ازدهرت فيه المعارف في الأمصار الكبرى: قرطبة وإشبيلية وبلنسية وغرناطة، وغيرها ولم يلبث هذا الازدهار أن انقلب إلى ضده بعد معركة العقاب (609هـ /1212م)، وقيام الدويلات المستضعفة ثم صارت الأمصار الكبرى تسقط في أيدي الإسبان تباعا، ومنها قرطبة (633هـ / 1235م).

وبما أنه عاش في هذه الظروف، وهاجر إلى المشرق فإن أخباره لم تأخذ طريقها إلى المؤرخين الأندلسيين، فكل ما نستطيع أن نعرف عنه في الأندلس أنه حصل على ثقافة واسعة في العلوم الإسلامية، تتجلى لنا في ما كتبه من معارف في اجزاء تفسيره.

المصادر والمراجع:

- طبقات المفسرين: الداودي، القاهرة (1403هـ / 1983م).

محمد بن جرير الطبري: (**224 – 310هـ / 839 – 923م**).

هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري الإمام الموسوعي المفسّر المؤرخ، مسقط رأسه كان بآمل – طبرستان، واستوطن بغداد، وبها اشتهر علمه وفضله استوعب علوم العصر قرآنا وحديثا وفقها وتاريخا وعربية، وكان في صف الأئمة المجتهدين، له آراؤه في الأصول والاجتهاد، لا يقلد غيره، كما انه كان في صف أهل الفضل والأخلاق والدين المتين والتفكير الصحيح والتأليف الجيد والرحلة الواسعة والاختيارات المتعددة.

وترجمة الطبري واسعة، وآثاره كثيرة منها "تهذيب الآثار واختلاف فقهاد الأمصار" والتفسير المسمى: "جامع البيان عن تأويل آي القرآن"، وهناك مؤلفات أخرى.

المصادر والمراجع:

- تفسير الطبري: تحقيق أحمد محمد شاكر ومحمود محمد شاكر، القاهرة (1969م).

علي بن محمد الطبري: (450 – 504هـ / 1058 – 1110م).

هو الكيا الهرّاسي: عماد الدين على بن محمد الطبري الشافعي شخصية شهيرة في القرن الخامس الهجري وأوائل السادس منه، ولد بطبرستان، وسكن بغداد، ورحل في طلب العلم وعمدته من الشيوخ: عبد الملك بن عبد اللّه الجوّيني، إمام الحرمين الشافعي (478 – 1085م)، أستاذ المدرسة النظامية بنيسابور وبهذا الأستاذ تأثر كل من الإمام الغزالي، والكِيَا الهراسي، باتباع المذهبية الشافعية التي كانت سائدة هناك.

وترجمة الكيا الهراسي: متسعة في عدة مصادر وأهم ما يلفت النظر فيها أنه كان فصيح اللسان، قوي الجنان، يدافع عن مذهبه الشافعي بكل ما يستطيع، في عصر كان الصراع المذهبي حادا، ولا سيما بين الحنفية والشافعية، وبين الشافعية والحنابلة، ولما سكن بغداد، تولى التدريس بالمدرسة النظامية بها، وفيها كان يربط الصلة بعدد كبير من اعلام العصر، يناظر ويجادل وينتقد، وينتشر ذكره في الأوساط العلمية، وقد أخذ عنه كثيرون من أعلام العصر، واستمر في أداء رسالته العلمية ونشاطه المتزايد إلى أن ودّع هذه الحياة تاركا كتابه: "أحكام القرآن" مع أخبار علمية أشارت إليها كتب التراجم المتعدّدة، كما ترك كتبا أخرى لم نطّلع عليها.

وكتب مترجموه عن لقبه (الكيا الهرّاسي): انه لقب يعني: الكبير القدر، باللغة الفارسية.

المصادر والمراجع:

- أحكام القرآن: الكيا الهراسي، بيروت، (1403هـ / 1983م).

محمود بن عمر الزمخشري: (467- 538هـ / 1075 - 1144م).

هو أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي جار اللّه، ولد سنة سبع وستين وأربعمائة هجرية، وتوفاه اللّه سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة هجرية (467 - 538هـ / 1075 - 1144م).

ولد في عهد الملك شاه (465 - 485هـ) الذي رعى العلم والعلماء والدراسات الدينية والعقلية، وساعده في ذلك وزيره نظام الملك، الذي أنشأ مدرسة بغداد ومدرسة نيسابور، وقدّم المحدثين وأغدق عليهم العطاء.

نشأ الزمخشري في أسرة تقية متدينة فقيرة، ومات والده كهلا في سجن مؤيد الملك المتوفي (494هـ).

ولد الزمخشري في "زمخشر"، قرية من إقليم خوارزم، وهي بلاد اشتهر أهلها بالتديّن والجهاد ونبغ فيها علماء كبار في مختلف أصناف المعرفة، وهي بلاد كثيرة الزرع والكروم والأشجار والرياحين، كما انتشر بها المذهب الاعتزالي لمدة طويلة، وكانت في أيام الزمخشري مركزا اعتزاليا.

من أشهر شيوخه: أبو مضر محمود بن جرير الضبي الأصفهاني (ت 507هـ)، الذي تعلم عليه اللغة والنحو وأصول الإعتزال والجدل.

اتصل الزمخشري برجالات الدولة في خوارزم وخراسان، وبمكة في جواره الأول والثاني وكان جواره الأول بمكة سنة (512هـ)، وقد أكرمه أميرها علي بن عيسى بن حمزة بن وهاس من شرفاء مكة ومن علمائها، وفي هذا الجوار قرأ الزمخشري "كتاب سيبوبة" على العالم عبد اللّه بن طلحة اليابري المتوفّى سنة (518هـ)، وبعد سنتين عاد الزمخشري إلى بلاده، فقضى مدة في التأليف، وفي ظروف الحظوة التي نالها من خوارزم اشاه المتوفّى سنة (521هـ) وابنه المتوفى سنة (551هـ)، ثم عاد الزمخشري

إلى مكة سنة (526هـ) وجاور بها ثلاث سنوات محاطا بفضل شريفها ابن وهّاس، وخلال تلك المدة ألف كتابه "الكشاف في تفسير القرآن الكريم"، ثم قفل راجعا إلى بلاده مارّا بالعراق، وبها درس طائفة من كتب اللغة على أبي منصور الجواليقي، وذلك سنة (533هـ)، وصل الزمخشري إلى بلاده وفيها وافتة المنية سنة (538هـ)، بجرجانية خوارزم، لم يخلّف الزمخشري عقبا، وعاش زاهدا في النساء، راغبا عن الزواج.

المصادر والمراجع:

1 - وفيات الأعيان.

2 - لسان الميزان.

محمد عبده: (1266هـ - 1323هـ / 1849 - 1905م).

هو محمد بن عبده بن حسن خير اللّه، ولد ونشأ في قرية: "محلة نصر"، بمركز "شبراخيت" من أعمال مديرية "البحيرة" بدلتا مصر، وكانت هذه النشأة طيبة تميزت بالتربية الدينية والروح الصوفية والميل إلى المعرفة ودراسة بعض الكتب العلمية بعد حفظ القرآن الكريم.

تعلم القرآن والكتابة في كتاب القرية، وكان لأهله وذويه مكانة مرموقة عند مواطنيهم من الفلاحين في الريف، فاكتسب منهم إباء وشما واعتزازا بالأصالة والترفع عن السفاسف.

وكان أول معهد قصده بعد كتّاب القرية هو "الجامع الأحمدي" بمدينة "طنطا" بمصر، من اجل الاستماع والاستفادة من دروس تجويد القرآن على بعض المقرئين هناك.

وفي سنة (1281هـ/ 1864م)، نجده ينتقل إلى دراسة العلوم الإسلامية: من فقه، وتوحيد ونحو، بعد أن أنهى دروس التجويد، وذلك في "الجامع الأحمدي" نفسه، ويظهر أن نفسه لم تقبل على هذه الدراسة، فهجرها بعد سنة قضاها مترددا على حلقاتها، ثم رجع إلى أهله وقريته عازما على الاشتغال بالزراعة مع أفراد أسرته، وتزوج في سن مبكرة من حياته.

وفي سنة (1282هـ / 1866م) نجده طالبا بالأزهر، وكان شيوخ الأزهر آنذاك لهم شأن وجاه ومعرفة بالعلوم الإسلامية/شرعية ولغوية ومنطقية فأقبل على الدراسة والاستفادة، حتى تضلع من علوم الشريعة واللغة والمنطق، واكتسب ملكة النقد والتفكير والبيان والجدل.

وظهر اسم محمد عبده لأول مرة في مقال نشرته له جريدة "الأهرام" سنة (1293هـ / 1876م)، وتقدم لامتحان نيل شهادة "العالمية" من الأزهر سنة

(1294هـ / 1877م)، وكان بعض أعضاء لجنة الامتحان يعمل على رسوبة، نظرا لما ظهر به من أفكار تجديدية ولصحبته المشهورة لجمال الدين..!

وفي سنة (1295هـ / 1878م) عين مدرسا بدار العلوم، فكان يدرّس طلابها "مقدمة ابن خلدون" ويوجههم بها إلى دراسة أمهات كتب الفقه والأصول واللغة والأدب والتاريخ وما إلى ذلك، وبذلك أصبح شخصية مرموقة ذات طابع خاص واتجاه في التجديد معين، وطهر اسمه في المجلات والجرائد إلى جانب أستاذه جمال الدين.

وبسبب تبنيه لأفكار جمال الدين الأفغاني تعرض للسجن والنفي عن بلاده، وذلك سنة (1299هـ / 1882م) وهو في سن لا تتجاوز أربعا وثلاثين سنة.

وكان رحالة زار لندن، وتونس، وسويسرا، كما زار بلدانا أخرى، واتصل بعدة شخصيات علمية وسياسية، وتعلم الفرنسية، وكان دائم النشاط والاطلاع والتفكير، وقبيل وفاته زار تونس والجزائر، وكان على نية زيارة المغرب.

ولم يتسع وقته ليؤلف كتبا كثيرة، لكنه اشتغل بتفسير القرآن الكريم، وكتابة مقالات وتعليقات جيدة منها:

- العلم والمدنية بين الإسلام والنصرانية.
- رسالة التوحيد،
- تعليقات على كتاب "نهج البلاغة".
- تعليقات على مقامات "بديع الزمان".

المصادر والمراجع:

- محمد عبده الإمام، د:محمد عمارة، بيروت دار الوحدة (1406هـ / 1985م).

محمد رشيد رضا: (1282 – 1354هـ / 1865 – 1935م).

هو محمد رشيد بن علي رضا، ولد ونشأ في "القلمون" من أعمال مدينة طرابلس الشام في لبنان، وتربى تربية دينية علمية صوفية على يد جماعة من علماء الشام، وكان اتصاله بحركة الإصلاح والتجديد عن طريق مجلة "العروة الوثقى" مما دفعه إلى الارتباط بعدة شخصيات والهجرة إلى مصر، وملازمة دروس الشيخ محمد عبده، وتأسيس مجلة: "المنار"، والمساهمة الواسعة في المشاريع والحركات العاملة على رفع مستوى الشعوب الإسلامية فكريا وعلميا وسياسيا واقتصاديا وأخلاقيا، ولهذا الغرض أسس مدرسة الدعوة والإرشاد في القاهرة.

ومقالات الشيخ محمد رشيد رضا وبحوثه ومؤلفاته تعكس التزامه بمبدأ الإصلاح والسلفية والتجديد والتحرر من التضليل والتقليد.

ومن آثاره المطبوعة ما يزيد عن تسعة عناوين منها:

- أربعة وثلاثون مجلة من مجلة المنار.
- تاريخ الأستاذ الإمام، ثلاثة أجزاء.
- الوحي المحمدي.
- نداء للجنس اللطيف.

وودع هذه الدنيا سنة (1354هـ / 1935م)، بعد حياة حافلة بالأعمال والمشاريع والدعوة إلى اصلاح شامل لأحوال المسلمين، لمجابهة ما جد من تطور مادي ومعنوي وتحولات فكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية.

- المصادر والمراجع:
- الإسلام والتجديد في مصر، تشارلز آدمس، القاهرة (1354هـ / 1935م) تعريب عباس محمود العقاد.

إسماعيل بن عمر بن كثير: (**701 – 774هـ / 1302 – 1373م**).

هو إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، يكنى بأبي النداء، ويلقب بعماد الدين، مؤرخ واسع الاطلاع على أخبار الدول وتراجم الرجال، مفسر من أهل التفسير بالمأثور، ومؤلف مكثر له مؤلفات جيدة في مضمونها ومنهجها.

ولد بـ "البصرة" وانتقل في السابعة من عمره إلى دمشق حيث أهّلته قريحته الوقادة إلى طلب العلم والاتصال بالأساتذة، والاطلاع على الخزائن والاستفادة من مجالس العلم.

كان عصره القرن الثامن الهجري مزدهر بالأعلام الذين استوعبوا معارف العصر وقضايا العقائد والمذاهب والعلوم المختلفة، فاستفاد منهم واتخذهم قدوة في العام والسلوك وكثرة التأليف والتدريس والفتوى.

كان شافعي المذهب إلا أنه كان تلميذ الإمامين ابن تيمية وابن القيم وخريج مدرستهما السلفية التي تجعل القرآن والسنة وفقه السنة الصحابة والتابعين الأساس الذي تبني عليه بحثها ودراستها وأرائها في المعتقدات، وفقهها في العبادات والمعاملات وكان يفتي بآراء ابن تيمية في بعض المسائل، وانعكست معارفه وثقافته السلفية على كثير من مؤلفاته التي انتشرت في حياته وبعد مماته، وأهمها بطبيعة الحال "التفسير" الذي أصلح مجددا لمدرسة الطبري وكتاب "البداية والنهاية" الذي نهج به منهج ابن الأثير في التاريخ، وجدد في تناول أحداث التاريخ ورجاله مع التوسع والاستعاب.

والمفسرين الذين اعتمد عليهم ابن كثير عديدون، إلا أننا نجد في مقدمتهم المفسر الطبري الذي استفاد منه، وناقشه في كثير من الأحكام الفقهية، كما ناقشه في كثير من الإستشهادات والروايات، وأحيانا ينقل عنه نقولا طويلة من دون أن يعلق عليها.

المصادر والمراجع:

تفسير ابن كثير طبعة بيروت (1981).

محمد الطاهر بن عاشور: (1296 – 1393هـ / 1879 – 1973م).

محمد الطاهر بن عاشور من أهل العلم والفتوى والقضاء والبحث المشهورين بتونس، بها ولد وتربّى وتعلم وتدرّج في المناصب، حتى أصبح شيخ علماء "الزيتونة" وعميد المذهب الفقهي المالكي المعتد برأيه وفتاويه.

له عدّة شيوخ وتلاميذ ودراسات وأبحاث ومؤلفات ومشاركات في المجامع العلمية، وصلات وثيقة بالحياة العلمية والحركة الفكرية في المشرق والمغرب مدة طويلة.

ومن مؤلفاته "مقاصد الشريعة"، و"أصول النظام الاجتماعي في الإسلام"، و"الوقف وآثاره في الإسلام"، و"أصول الإنشاء والخطابة"، و"نقد كتاب"، الإسلام وأصول الحكم"، و"أليس الصح بقريب".

ومن تحقيقاته: ديوان بشار بن برد، والواضح في شكل شعر المتنبي وأشهر مؤلفاته وأعظمها هو تفسيره المسمى: "التحرير والتنوير"، وهو والد الشيخ محمد الفاضل بن عاشور العالم المفكر المؤلف الشهير.

المصادر والمراجع:

تفسير التحرير والتنوير: في ثلاثين جزءا ط الدار التونسية للنشر، (1405هـ / 1984م).

خاتمة

الحمد للّه على تمام هذا الجهد المتواضع الذي بذلته في تقريب الأذهان إلى مفهوم جمع وترتيب القرآن، وأصلي وأسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين سيدنا البشير النذير محمد صلّى اللّه عليه وسلم.

وبعد:

هذا ما يسر اللّه لي جمعه من بطون الكتب الكثيرة التي طالعتها، واستخرجت منها هذه المعلومات ولم آل جهدا في قراءة ما تيسر لي سواء أكانت الكتب تفاسير للقرآن أو ما يتعلق بجمعه وترتيبه وتدوينه.

فآمل أن أكون قد وفقت فيما كتبت وفيما جمعت، كما أرجو أن يكون عملي هذا خالصا لوجهه الكريم.

وقد أردت به طلابا استعجل عليهم الزمن فلم يجدوا فرصة للتحصيل العلمي المتأني، أو دعاة انشغلوا بالدعوة ومتطلباتها اليومية فشغلتهم عن حضور حلقات العلم وتحصيله.

كما أرجو من الإخوة المختصين في علوم القرآن النصح فيما وجدوه من أخطاء أو خلل.

إن المؤمن الذي يريد أن يعرف الحقيقة لا بد أن يتخذ من علم اللّه مرشدا، ومن قول اللّه حافظا ورائدا، ومن كتاب اللّه شرعة ومنهاجا.

سائلا اللّه تعالى بأسمائه وصفاته أن يجعل القرآن العظيم شفاء صدورنا، وجلاء همومنا، وأن يذكرنا منه ما نسينا وأن يرزقنا تلاوته أناء الليل وأطراف النهار بما يرضيه عنا، وان يبارك به علينا وعلى أبنائنا ومن له حق علينا اللّهم آمين.

هذا من فضل اللّه المنان الرحيم، فإن أصبت فمن اللّه، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان واللّه المستعان وهو الهادي إلى سواء السبيل.

وكان الفراغ من تأليفه صبيحة يوم السبت

في 30 رمضان 1425هـ الموافق ل: 13 نوفمبر 2004م.

المؤلف:

أحمد بن الطاهر منصوري

ثبت المصادر والمراجع

1 – لمحمد عزه دروزه: القرآن المجيد – المطبعة العصرية – صيدا – لبنان.

2 – إبراهيم الأبياري: تاريخ القرآن، دار الشروق.

3 – د/ محمد قبيسي: تدوين القرآن الكريم.

ط: 1 - 1981م دار الآفاق الجديدة – بيروت.

4 – د/ أحمد العليمي: علوم القرآن ط: 1 – 2001م.

دار ابن حزم – بيروت لبنان.

5 – فوّاز أحمد زمرلي: كيف نتدبر القرآن.

ط: 5 – 2003م، دار البشائر الإسلامية، بيروت لبنان.

6 – د/ حسن الشرقاوي: الجدل في القرآن منشأة المعارف بالإسكندرية.

7 – د/ غازي عناية: أسباب الترول القرآني.

ط: 1 – 1987م، دار الشهاب باتنة – الجزائر.

8 – محمد الغزالي: نظرت في القرآن ط: 6 – 1986م.

دار الشهاب باتنة الجزائر.

9 - محمد بن محمد أبو حامد الغزالي: مختصر احياء علوم الدين ط: 1 – 1993، دار التفكير بيروت – لبنان.

10 - عباس محمود العقاد عبقرية الصديق.

ط: 1965، دار المعارف بمصر.

11 – عباس محمود العقاد: عبقرية محمد نشر مكتبة رحاب – الجزائر.

12 – عباس محمود العقاد: ذو النورين، عثمان بن عفان.

ط: 2001م نشر نهضة مصر.

13 – د/ فيليب حتى: العرب تاريخ موجز ط: 3.
دار العلم للملايين بيروت.
14 – فتحي رضوان: الإسلام ومشكلات الفكر.
اقرأ دار المعارف بمصر.
15 – محمود بن الشريف: الامثال في القرآن.
اقرأ – دار المعارف بمصر.
16 – إبراهيم البساطي: وحدة العرب – اقرأ – دار المعارف بمصر.
17 – محمد فريد وجدي: الإسلام دين الهداية والإصلاح – دالو الهلال.
18 – د/ صلاح الدين المنجّد: أحسن ما قرأت عن الإسلام.
ط 2 دار الكتاب الجديد – بيروت – لبنان.
19 – القرآن الكريم.
20 – تفسير الطبري (انظر جامع البيان).
21 – تفسير القرآن العظيم – لابن كثير – دار المعرفة بيروت.
22 – تفسير الجلالين.
23 – الإتقان للسيوطي.
24 – تفسير القرطبي (انظر الجامع لأحكام القرآن).
25 – في ظلال القرآن سيد قطب – دار الشروق.
26 – النشر في القراءات العشر لابن الجزري.
دار الكتاب العربي، بيروت.
27 – مصطفى اكرور: الجامع لأحكام روايتي ورش وقالون عن الإمام نافع.
ط: 1 – 2001م دار الإمام مالك – الجزائر.

28 – معجم تفاسير القرآن الكريم – الجزء الأول.
د/ عبد القادر زمامة – د/ عبد النبي يفاضل.
د/ عبد الوهاب التازي سعود – د/ محمد الكتاني.
29 – منّاع القطان: مباحث في علوم القرآن.
الناشر مكتبة وهبة – القاهرة.
ط: الثالثة عشر 1425هـ - 2004م.
30 – د/ أنس أحمد كرزون – ورتل القرآن ترتيلا.
ط: الخامسة 1423هـ – 2002م.
دار ابن حزم – بيروت لبنان.
31 – مع القرآن الكريم – إعداد وتقديم صفوت جودة أحمد.
ط: 1 – 1423هـ - 2002م، مكتبة الصفا – القاهرة.
32 – ماذا تعرف عن القرآن والنّبي – تأليف: أحمد عبد العال.الطهطاوي.
ط: 1 – 1424هـ - 2003م.
مكتبة الصفا – القاهرة.
33 – التبيان في أقسام القرآن – لابن قيّم الجوزية – حققه وخرج أحاديثه أبو عبد الرحمن عادل بن أحمد حامد محمد.
دار الإيمان – إسكندرية.
34 – الحديث في علوم القرآن والحديث تأليف: فضيلة الشيخ حسن أيوب.
ط: 1 – لدار السلام 1422هـ - 2002م، القاهرة – مصر.
35 – كيف تحفظ القرآن الكريم تأليف الأستاذ محمد عبد اللّه خير الدين.
دار الإيمان – إسكندرية.

فهرس الآيات

السورة	رقم الآية	الصفحة
– الحجر	9	3
– فاطر	32	8
– عبس	16 – 15	10
– القيامة	17	10
– العلق	03 – 01	58
– الإسراء	106	17
– الفرقان	32	17
– الفرقان	33	17
– الإسراء	85	18
– البقرة	189	18
– البقرة	215	18
– البقرة	222	18
– النازعات	42	18
– الأنفال	01	18
– الكهف	83	18
– البقرة	219	18
– البقرة	220	18
– النساء	95	19
– النساء	95	19
– البقرة	125	20

– التحريم	05	20
– الزخرف	13	22
– الواقعة	77 – 79	22
– ص	29	23
– محمد	24	23
– الإسراء	109	23
– النساء	42	23
– الحشر	21	24
– الأنفال	02	24
– الزمر	23	24
– مريم	58	25
– المائدة	118	25
– الجاثية	21	25
– الطور	27	25
– الزمر	16	25
– الأعراف	204	26
– ق	37	26
– الأعراف	204	28
– فصلت	26	28
– المائدة	83	28
– النحل	98	29
– النساء	82	31
– الزلزلة	7 – 8	32

– التين	5 – 4	32
– الليل	10 – 4	32
– الشمس	10 – 9	32
– البلد	20 – 17	32
– الفجر	16 – 15	32
– الأعلى	11 – 10	32
– الانفطار	14 – 13	32
– عبس	41 – 38	32
– التين	5 – 4	33
– الأعراف	11	33
– الحجر	29	33
– البقرة	30	33
– البقرة	38 – 36	34
– التين	6 – 4	34
– الأنفال	72	35
– طه	115	35
– التوبة	88	35
– التوبة	20	35
– النساء	95	35
– آل عمران	14	36
– الكهف	46	36
– الشعراء	88	36
– القلم	14 – 13	36

– الكهف	39	36
– فصلت	34	36
– المنافقون	07	37
– المائدة	100	37
– البقرة	249	37
– التوبة	25	37
– النساء	114	38
– المائدة	100	37
– يوسف	38	38
– يوسف	40	38
– غافر	59	38
– الأنعام	116	38
– يوسف	103	38
– الزخرف	78	38
– يونس	36	38
– يونس	31	39
– هود	20	39
– النحل	78	39
– الإسراء	36	39
– المؤمنون	78	39
– السجدة	09	39
– الأنعام	46	39
– فصلت	22	39

– البقرة	20	39
– فصلت	20	39
– المجادلة	01	39
– النساء	134	39
– محمد	23	39
– البقرة	18	39
– طه	46	39
– الأنعام	20	39
– الزخرف	40	39
– الفرقان	73	39
– المائدة	51	41
– المائدة	64	41
– المائدة	82	41
– آل عمران	67	41
– النساء	46	41
– النساء	160	41
– المائدة	41	41
– الجمعة	06	41
– فصلت	26	49
– العنكبوت	2 – 1	49
– الروم	4 – 1	49
– الزمر	2 – 1	50
– العاديات	01	50

– الضحى	2 – 1	50
– الليل	01	50
– الشمس	01	50
– القيامة	01	50
– البلد	01	50
– الفجر	01	50
– الطارق	01	50
– البروج	01	50
– النازعات	01	50
– المرسلات	01	50
– الواقعة	76 – 75	50
– البقرة	26	51
– الحج	73	51
– سبأ	03	51
– يونس	61	51
– سبأ	22	51
– النساء	40	51
– الزلزلة	8 – 7	51
– الأنبياء	47	51
– لقمان	16	51
– المرسلات	20	52
– المؤمنون	12	52
– الإسراء	61	52

– الأعراف	12	52
– السجدة	08	52
– المرسلات	20	52
– القمر	22	52
– الإسراء	41	55
– فصلت	44	55
– الزخرف	03	55
– إبراهيم	04	55
– محمد	24	56
– النحل	43	56
– التوبة	122	56
– التوبة	122	56
– الأحزاب	63	56
– الإسراء	85	56
– الإسراء	85	56
– الأحزاب	63	56
– لقمان	34	58
– العلق	3 – 1	60
– المؤمنون	28	60
– ابراهيم	39	60
– الإسراء	111	60
– فاطر	34	60
– يونس	10	66

– الحجر	87	66
– الفاتحة	1	68
– لقمان	25	68
– الزمر	45	68
– الأنعام	19	68
– الزمر	3	68
– الأعراف	70	70
– آل عمران	109	70
– لقمان	21	71
– الفاتحة	01	71
– النساء	97	73
– الحجرات	14	74
– الحج	41	74
– محمد	7	**74**
– فاطر	43	**75**
– فاطر	43	**75**
– غافر	82	**75**
– الحج	37	**75**
– المائدة	89	**75**
– الأعراف	58	**75**
– لقمان	31	**76**
– البقرة	56	**76**
– ابراهيم	05	**76**

– لقمان	31	**76**
– البقرة	158	**76**
– النمل	40	77
– ابراهيم	07	78
– النمل	40	79
– فاطر	28	79
– آل عمران	140	79
– البقرة	216	79
– الأنبياء	35	83
– البقرة	156	84
– المائدة	32	84
– ابراهيم	04	84
– يس	70 – 69	84
– ابراهيم	52	85
– الإسراء	10 – 9	85
– الإسراء	82	85
– مريم	97	85
– النحل	64	85
– النحل	44	85
– الزمر	42	85
– الكهف	27	85
– النمل	92	85
– العنكبوت	45	85

– الأحقاف	30 – 28	85
– الجن	01	87
– الأنعام	25	87
– الأنفال	31	87
– الحشر	21	87
– الزمر	23	87
– الإسراء	82	87
– المائدة	84 – 83	87
– الرعد	36	88
– الإسراء	108 – 107	88
– القصص	53	88
– التحريم	05	88
– المنافقون	8 ،7	88
– المدثر	25	88
– الفرقان	05	88
– الأنفال	31	88
– الأنعام	92	88
– الشورى	07	88
– يوسف	02	89
– الرعد	37	89
– الشعراء	195 – 192	89
– الزمر	28 – 27	89
– فصلت	03	90

– النحل	103	90
– فصلت	44	90
– البقرة	234	94
– النحل	90	94
– النساء	95	94
– الحجر	09	100
– النحل	101	105
– الفاتحة	07	106
– القلم	15	107
– المزمل	04	107
– المدثر	25	107
– المزمل	04	112
– طه	63	117
– النساء	162	117
– المائدة	69	117
– الحشر	21	123
– الأنفال	02	123
– النحل	100 – 98	123
– المزمل	5	123
– ص	29	123
– الإسراء	109 – 107	123
– النساء	41	123

فهرس الأعلام

أبو بكر الصديق: 11، 12، 45، 96، 97، 98،103،104.
أبي خزيمة الأنصاري: 12.
أبو عمر الداني: 13.
أبن المقفع: 14.
أبي العلاء: 14.
ابن قتيبة: 16.
ابن فارس: 21.
ابن مسعود: 23، 44، 45، 47، 95، 96، 97، 102، 103، 124.
ابن أبي داود: 26.
ابن عمر بن الخطاب: 26.
أبي لبابة:.27.
آدم عليه السلام:.33، 34، 35، 52.
أبو البركات:.44، 126.
ابن عباس:.44، 46، 47، 60، 93، 96،97، 102، 103، 106.
أبو حاتم:.13، 45.
أبي هريرة:.26، 58، 95.
أبي سعيد الخدري:.58.
أنس بن مالك:.30، 58، 102.
أبو عبد الله: 58، 129.
ابن ماجة:.59.
ابن عمران:.59.
أبي مالك الأشعري:.59.
أبو جعفر الطبري:.60، 130.
أبو العباس المبرد:.60.
الأسود بن سريع:.62.
البخاري:.26، 84، 94، 95، 96، 102.
البيهقي:.93، 97.
الحاكم:.11، 93، 96، 97.
الإمام أحمد:.93، 94، 95، 96.
أبو داود: 93، 95.
ابن حيان:.93.
الإمام مسلم:.24، 94.
ابن أم مكتوم:.94.
البغوي:.95، 97.
أبو منصور الأرجاني:.96.
ابن الحصار:.97.
ابن وهب:.97.
أبو بكر الباقلاني:.97.
ابن الجوزي:.98.
ابن العربي:.106.
ابن كثير:.114.
ابن خلدون:.116، 135.
أبو عمرو بن العلاء:.118.
أبو جعفر بن يزيد:.118، 130.
أبي موسى الأشعري:.26، 124.

ابن كثير المكي: 125.
أبي ذر: .25.
البراء بن عازب:.26.
الإمام الفخر الرازي:.29.
ابن الجزري:.122، 142.
الحسن:.20.
أبو حنيفة:.21.
الأعمش:.27.
ابن النجار:.27.
أبي جعفر:.92.
أبي أوس:.95.
البيضاوي:.102.
برانق:.65.
تميم الداري:.82.
الترمذي:.47، 93.
ثابت:.110.
جابر:.106.
حفصة بنت عمر:.12.
حذيفة بن اليمان:.12، 24.
حفص:.15، 125.
حمزة بن علي الإمام:.27.
الحكم بن عمير:.62.
حمزة بن حبيب:.92، 118.
الخازن:.102، 106.
الخطابي:.11.
خلف البزار:.118.
الربيع بن خيثم:.46.
رشيد رضا: 63، 136.
الربيع بن أنس:.48.
زيد بن ثابت: 11، 12، 93، 94، 98.
زيد بن أسلم:.46.
زيد بن أسامة:.47.
زيد بن أرقم:.88.
الزمخشري: 102، 117، 120، 132، 133.
سعيد بن العاص:.12، 98.
اسحاق النبي:.41.
سفيان الثوري: 45.
السيوطي: 23، 82، 97، 106، 127، 128.
اسماعيل بن عمر: 137.
سعيد بن جبير: 47.
الشافعي: 21، 96.
شفيق: 60.
شعبة: 125.
الضحاك: 25.
الطبري: 11، 47، 48، 60، 61، 106، 130، 137.
الطبراني: 30.
عبد الله بن مسعود: 6، 11.
عمر بن الخطاب: 11، 12، 20، 45، 88، 92، 94، 96.
عثمان بن عفان: 11، 12، 13، 45، 84، 93، 94، 96، 98، 103، 113، 116، 117، 141.
عثمان بن أبي العاص: 94.

علي بن أبي طالب: 45.
عبد الله بن الزبير: 12، 94، 98.
عائشة: 117، 118.
عبد الرحمن بن الحارث: 12.
عروة: 117.
عمرو بن حزم: 22.
عكرمة: 106، 117.
عبادة بن حمزة: 25.
عامر الشعبي: 45.
عدوان: 65.
عيسى عليه السلام: 84.
عبد الله بن أبي: 88.
عمر بن العلاء: 92، 118.
عبد الله بن كثير: 92، 96، 118.
عبد الله بن عامر: 92، 118.
عاصم بن بهدلة: 92، 125.
علي بن حمزة: 92، 125.
الغزالي: 131.
الفرّاء: 46.
القرطبي: 45، 46، 47، 58، 59، 60،61، 129،142.
قطرب: 46.
قتادة: 47.
قالون: 125، 142.
الكلبي: 46، 47.
كعب: 62.
الكسائي: 118، 125.
محمد الخضري: 18.
محمد عبده: 49، 63، 134، 135.
موسى – النبي عليه السلام–: 29، 73، 84.
محمد ﷺ: 5، 37، 63، 83، 139.
مالك الإمام: 97، 102.
محمد جلال الدين: 127.
محمد بن أحمد: 129.
محمد بن جرير: 130.
محمود بن عمر: 132.
محمد رشيد: 63، 136.
محمد الطاهر بن عاشور: 138.
مجاهد: 47، 48، 96.
النووي: 22، 23، 24، 25، 27، 30.
النسائي: 25، 93.
النسفي: 6، 44، 45، 53، 64، 126، 132.
نافع بن أبي رويم: 118، 124.
هشام بن حكيم: 92.
ورش: 15، 125، 142.
الواسطة: 82.
وائلة: 95.
يحي بن وثاب: 27.
يعقوب – النبي: 41.
يعقوب بن اسحاق الحضرمي: 92، 118.

الفهرس التفصيلي للكتاب

مقدمة: 8

الفصل الأول

أ – جمع القرآن وتدوينه 10

– معاني جمع القرآن. 10

– أسباب ودوافع جمع القرآن في صحف 11

الفصل الثاني

ب – كيف ومتى وأين نزل القرآن؟ 15

– نزول القرآن على سبعة أحرف 15

– تسمية القرآن 16

– تقسيم سور القرآن إلى مكي ومدني 19

– عظمة وآداب تلاوة القرآن 21

– الطهارة والنظافة 22

– التدبر والخشوع 23

– تحسين الصوت بالقرآن 26

– الاستماع والانصات 28

– الاستعاذة والبسملة 29

– الدعاء عند الختم 30

الفصل الثالث

ج – المنهج القرآني الثابت 31

1 – عناصر المنهج الثابت 31

2 – أمثلة عن العناصر 32

3 – كيف استطعنا أن نتبين المنهج؟ 42

الفصل الرابع

د – سور القرآن المبدوءة بحروف مفردة 43

الفصل الخامس

هـ – أفضلية الحمد لله ومغزاه 58

1 – أقوال العلماء في أفضلية الحمد 59

2 – الفرق بين الحمد والشكر 64

الفصل السادس

و – لغة القرآن وأسلوبه 81

1 – القراءات ونشأتها 91

الفصل السابع

ز – مجموعة من الأحاديث والروايات والأقوال في تدوين القرآن 93

– أسماء السور 101

– فصل السور بالبسملة 103

– السجدات ومواضعها 104

– مبادئ الأجزاء والأحزاب 104

– كتابة ترتيب نزول السور القرآنية وصفاتها وعدد آياتها وأرقامها وفواصلها 105

– تمييز الأسلوب المكي والأسلوب المدني 108

– الشكل والنقط – شكل المصاحف ونقطها 110

– علامات الوقف والوصف والأداء 111

– رسم المصحف العثماني 112

– القراءات المشهورة 118

– أهم الآداب التي تلزم قارئ القرآن أن يتأدب بها 122

– التعريف بأئمة القراء 125

– التعريف ببعض المفسرين 126

– خاتمة 139

– ثبت المصادر والمراجع 141

– فهرس الآيات 144

– فهرس الأعلام 155

– الفهرس التفصيلي للكتاب 158